زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: جراح لن تنتهي
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام

الطبعة الأولى 2018 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع : 2018/7421
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

رواية

جراح لن تنتهي

زهير أبو سعد

مقدمة

الكاتب : زهير أبو سعد

العنوان : جراح لن تنتهي

لقد سلط الكاتب زهير أبو سعد الضوء على قضايا الجراح التي لم تنتهِ ولن تنتهي ، قضايا العنصرية الذكورية ، والعقلية الرجعية ، والقضية النضالية القومية ، سردها بطرافة الكلمات الجميلة التي أخفت خلف فكاهتها معاناة اضطهاد بشري واغتصاب أرض خلقوا على سطحها ولا يعرفون من ملكيتها شيء ، سوى متر يأوي جثمان شهادتهم ، هي عروبتنا التي نامت على أرصفة بيت المقدس فكل يوم يسقط شهيد فيه ، و يهان امرء من قبل الصهاينة والعروبة في ثبات أهل الكهف و لنكمل مسيرتنا من بيت المقدس إلى بلاد الشام حيث نحتل بعضنا بعضاً وكأن إسرائيل اجتاحت البلاد ونحن للأسف دودنا منا وفينا ، كانوا أجدادنا يتداولون مثلاً شعبياً (دود الخل منه وفيه) وما أكثر دودنا اليوم.... وما أكثر طمعنا الذي أعمى أعيننا نأكل حرام وننهب حقوق

الغير، هي التركة والأموال المورثة من آبائنا ما أورثتنا إلا التفرقة بين الإخوة كشخصية هذا الذكر أبو فراس الذي نهب وأنكر حصة شقيقاته من الميراث الذي تركها أبوه من مال عماته المغصوب من قبله ، نعم إن الرجولة تورث رجولة ، والذكور والطمع لا يولد إلا ذكوراً وطمعاً..... ولا يملأ أعينهم إلا حفنة تراب. نحن تركنا قضيتنا واتبعنا جاهليتنا ،

{ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ }

في القدم أيام الجاهلية كانت النساء إذا أنجبن فتيات تدفن وهي على قيد الحياة ظناً أنها تجلب العار، لكن جاء الإسلام ونسخ هذا الجرم الشنيع ، أما العقلية الرجعية عند البعض وفي كل الأديان والبلدان لا زالت مستمرة ، فمن يرزق بطفل يتهلل وجهه وكأنه بشر بالجنة بغير حساب ومن رزق بفتاة تغمد بنار جهنم . هو أبو فراس أيضاً الذي لا يعرف من دينه سوى عدد ركعات ولا يعرف ربه إلا عند الشدائد لقد غلبته عقليته الذكورية عندما رزقه الله بطفلة نبذها منذ الولادة وزوجته التي تبرأت منها الأمومة عند سماعها

الخبر، قضية طرحها الكاتب ليثبت أن المرأة هي المرأة هي مجتمع ، تربي ، تبني أجيال ، تناضل ، خُلقت حرة وتموت حرة ، إنها بمئة رجل سناء المقدسي الطفلة المنبوذة التي كبرت على الورع والتقى فهي التي جلبت الفخر لا العار باستشهادها برصاص صهيوني دفاعاً عن نفسها وعن شيخ كبير السن بالكاد يستطيع أن يتنفس ، سناء لم تجلب العار سناء زفت عروساً على نعش الشهادة..... فكم من رجولة تكمن في أجساد نسائية وكم من ذكور تتنكر بالرجولة..... ربما يوماً ما تصحو عروبتنا وتخرج من كهفها لتلد لنا رجالاً يدافعون عن بلادنا يسحقوا جاهليتنا.....

شروق المسالخي

إهداء

إلى الحبيبة تاليا

رفيقة الوجع التي أوجعت ما تبقى من عمر ،
أكتب لها من بعد أن انقطع حبل الحياة :

سلام عليكِ يوم وُلدتِ ، و يوم رحلتِ ،
و يوم تُبعثين في قوافل الحبّ حية ..

سُبات السمَاء ، حكاية أُخرى ..

هي السماء لها حكاية واحدة تَدور بثباتها حول التفاف الأرض بل حول مسار خلوها من البشَر ..

أنتَ بفراغاتك المُتكررة و بثاني أوكسيد الكَربون مُجرد كُومبارس في تسلسل البشر المتصارعة على إثبات وجودهَا من أجل مطامع و مصالح شَخصية ، جميع من سارَ على الكَلمات صراعهم لغاية تُدعى :

إقصاء ..

سوف تشعرُ بالنَقص الدَائم ، هي التَركيبة الذَاتية لبني البشَر ، قل لي ما الذي ينقصُكَ ، أقول لكَ من أنت ..

بكُل بَسَاطة أنتَ تركيبة بيولوجية تَخافُ من التَفكير بصَوت عال ، يكفيكَ الصَمت مَخلداً و بلسماً و طهوراً من أجل أن تنحني للخوف الذي يكسوكَ ، لن تموتَ بأقدار السمَاء كما تَعتقد ، بل سَتفنى بأقدار روايتك التي تطويها في قلبكَ ، سَتعلم بعد قرن و نَيف من الخشية بأنَ وجودَك على هذه السَطور عبارة عن سمَاد يُحرثُ بالتُراب حتى يقوى به غَيركَ ، لا تعتقد بأنك سُنبلة تُحمص تَحت صَاج الشَمس من

بعد أن تخرجُ من تَحت التُراب المُتهالك ، هل عَرفتَ من أنت !!

لن تَستطيع الإجابة على سؤال تَخافهُ ..

مسكين أنت حتى لو تَظَاهرتَ بالتقوى ، جرب و قف وَقفة صَراحة مع ذاتكَ و لو لمرة واحدة أمام المرآة ..

هل شَاهدتَ ذاكَ الكابوس الذي يُحيطه حول عَينكَ ، هل رَأيت ذَاكَ السَراب الذي يمتدَ بينَ فواصل تَجاعيدكَ ، هَل حدقتَ بمفارق الشَيب التي تمكنت من وجودكَ ، إنها وجدت لتُهدد وُجودكَ كَأية قوى قومية أو طَائفية أو عرقية ..

بكل بساطة هَذا أنت ، بقايا وجه شَاحب ، مُكفهر بالخشية من كُل من حولكَ و حتى من ذَاتكَ التي أعرتها الصمت في حضرت الحَقيقة ..

تخاف من الحقيقة لأنَ الذينَ عجنوكَ بأفكارهم قَالوا لكَ بأنَ الحَقيقة عَورة ، و في رواية أخرى قالوا لكَ بأنها مُحرمة ، و في رواية أيضاً قالوا بأنها خدش للحياء العام ، و غَيرها من خُزعبلات و حكايات ، و تَعددت الأسبابُ و الخَوف وَاحد ..

نعم هذا أنت ، النُطفة البَشَرية التي عجزت القُرون السَالفة من فهم مكنونها ..

لأنهُ كوكب مشوب بالحُب ، خَرج من بني جلدتنا ، أُناس يتَحدثُونَ بُلغتنا ، لَغة ذاكَ اللبيب الذي من الإشَارة يَفهمُ ، و يا ليتنا كُنا من قوم ذَاكَ اللبيب ..

كَان اللبيب مُجرد مَزحَة ابتدعهَا الأغبياء ، و كلما زَادَ ضجيج من حولي من أفكار ، كَان الصَمت خَير جَليس و خَليل ..

خَلفَ جميع الأسوار الأزلية ، تتربع مَقابر لأُناس هُم من هَذه المَدينة ، أو بُلغة صَريحة هُم ضَحايا أحلامهم و قَضَاياهم ، تسَألُ أسوار المَدينة تلك الأجساد التي طواها التُراب :

هل وَجدتُم ما وَعدكُم ربكم حَقاً ..

هي التي تسَأل الأحياء قَبل الأموات :

قُل سَيروا في الأرض و ابتغوا من فَضل الله ..

هُو المُستوي على عَرشه البَائن على خَلقه ، يُسير الأرض كَيفَ يَشَاء ، لا كَيفَ يشَاء خَلقه ، و لأنهم خَلقه فمشيئتهم

مُخيرة حَسب إرادَتهم و بإداراته و حكمته و عدله و رحمته ، ها هي الأسوار البازلتية تُحصنُ الأحلام من الإفلات في مُنزلقات أهل الحب ..

باتت تَسألُ الأفواه المُكبلة بالصَمت :

ما معنى الحَياة !! ..

لا أحد يَجرأ بالبَوح هُنا ، لا أحد يَرغب بالكَلام ، تَعبت القافَية و هي تَحبو حَافية لوحدهَا ، عَجزت القَصيدة في تَرميم العجز من الطَيران ..

كُل شَيء هُنا مُترس بالجُدران و الجُنُود و النُساك و العُباد ، تحملُ المنارات ثَلاث قبلات هُنا ..

هلال المُسلمين ، و صَليب المسيحيين و نجمة اليَهود ، و ناهَيكَ عن الأزقة المُغشاة بالبَشَر ، تَعرفُهم من صَليبهم المُعلق على صَدر المُتعبين ، تَراهم من جباههم المُسودة من آثار السُجود ، تَلمحهم من جَدائلهم المُنفلتة للهَواء ..

جميع هَذه الكُثبان البَشَرية يُنقبون عن الله ..

مُتغابينَ الحُب ، استبدلوا رُوح الله بالكراهية و البُغض ، لا حَاجة للتَمييز هُنا ، كُلاً اتخذَ لقلبه و هَيئته ميزة كَي يُعرف أو كي يُكره ..

لم يُوجه أحد من هَؤلاء الفُتات من بني البَشرية سُؤاله لمن سَلمهُ مَقالد هَذه العُقول ، لم يَجرأ أحد منهم أن يَرفع رَأسهُ للسماء ، ليس خوفاً من الله .. كلا ..

بل خَوفاً من الحَقيقة ..

الحَقيقة الدَموية التي عاشها هؤلاء المُؤمنون أعوام مديدة ، و حُروب عدَيدة خَلفَ جُدران هَذه المَدينة العتيقة ، إنها مَحطة للظُلم و الظَلام ..

أرادها الله قبلة للمُسلمين ، و جسداً مَذبوحاً للمسَيحيين ، و حائطاً مُبكياً لليَهود ، فَأرادها المُؤمنون مَكاناً للإقصاء و التَصنيف بسم الله و الأنبياء و الصَالحين و القديسين ..

كُل منهم اتخذَ التَقوى مَسكناً ، و القَلب مَبغضاً و الرُوح شَريدة و طَريدة ، و الأجساد مُلونة بلباس الخَشَية من الله ..

هَل الحَقيقة تُريد كَل هَذه الأقمشة من التَقوى حتى تَظهر تَميزها عن الأجساد الأُخرى ! ..

لا أحد يَعرف ما هي الحَقيقة هُنا ، أو بلغة صَريحة لا أحد يَهمه أن يَعرف ..

روايات تُتَلى آناء الليل و أطراف النهار ..
و لكَن هَذه المَرة كَانت بُقعة الضوء الخَافت يَأتنا من المَقبرة ، إنها أجسَاد أُلقي بهَا خَلف أسوار هَذه المَدينة العتَيقة ..
في آخَر الزَاوية ظلٌ لأحَد القُبور الرَطبة ، جَسدٌ لَفت جَينَاتهُ تحتَ التُراب ، لا زَال التُراب غَضاً طَرياً ، كَأنمَا دُفنَ صَاحبهُ بالأَمس ..
أُنثى بسن الحداد ، تَجثُم على مَرقد ذَاكَ القَبر ، جَالسَة أمَامَ شَاهدة كُتب علَيهَا :
الفَاتحة ..
هَذا مَا وَعدَ الرَحمن و صَدقَ المرسَلون ..
هَذا قَبر الشهيدة الشَابة :
سَنَاء بنت الحَاج عَبد اللطَيف المَقدسي
تُوفيت في .. 2 .. كَانون الأول .. 2020 للميلاد ..
لا تَبكي سَيدتي ، امسحي دُموعَك ، مَا هَذا الحداد القَاتم الذي تَرتَدينهُ ! ، هَذا مَا وَعد الرَحمن و صَدق المرسلون ، ألستِ مُؤمنَة بقضَاء الله و بقدَره !! ..
ـ آه يمّة مُؤمنَة !! ..

و أَكلت تلكَ الحَزينة سمفُونية الحداد ، لا يُمكن لكَ الفَرح هُنَا ، كُل مَا يُفرحكَ يُبكيكَ ، حَتى و أنتَ في ذروة الفَرح ، سَوفَ تبكي سَوفَ تَبكي ، لا مَحالة ..

لا فَرق بينَ عَربي و أعجمي إلا بالتَقوى هنَا ، و على قَدر تَخفيكَ بالتَقوى على قَدر إيمانكَ برب أنتَ أعلم به و بوَحيه ، المَدينة مُتسَخة بكُل طُقوس الإيمَان ، الأَزقة غَارقة بالوجوه النَقية ، طوفان من البَشَر هُنَا و هُنَاك ، لكُل قبلته فَاستَبقوا الخَيرات ، مَحَلات العُطور و البخور و السُبح و المَصاحف مُتَراشقة على الجُدران ، في الجَانب الأَيسر للمَدينة تَقع الأَسواق نَفسهَا ، الجُدران ذَاتهَا الوجوه أخت الوجوه التي في الجَانب الأيمن ، و لكن رَائحة البخور هُنَا تَختلف و العُطور كَذلك و أمَا الجُدران غُطَيت بالصُلبان ، و النَياشين و أَيقونَات السَيدة مَريم أو العَذراء ، كُلاً اتَخذَ من باب دُكَانه مَكاناً لتبادُل الأَحاديث و تَتنَاقل الأَخبار ، و عَدَد الحَجيج هَذه السَنة إلى تَراجُع ، و لَكن عَدَد الجَرائم بازدياد ، مَا الذي تفعلهُ العَالم هُنَا ، و عن مَاذا يَبحثون !! ..

هَل يَبحَثونَ عن الله !! ..

عَن المَال !! ..

عَن الرَاحة مَثلاً ! ..

كَي لا أَنسَى هُنَاكَ خَلفَ الجدار العَازَلة يَحطُ بركَابه حَائط المَبكَى ، جميع من يَسنَد عَليه خَطَاياهُ يَبكي و يَتَباكَى و يَزَدادُ بُكَاءً ، لحَى طَويلة بألوان عدة ، بُني و أَسود و أَشقر و أبَيض ، و جَدائل مُرخاه عَلى الأَكتَاف ، و وُجوهٌ عدة لا تَعرفُ من أَين أَتت ، لَكنهَا أَتت بخَيانَة العَرب ..

جَاؤوا من كُل أَصَقاع الأَرض يَحملونَ حَضارات عدَة و بشَوارع نَظَيفة و بَيوت أنَيقة و مُهندسَة ، و أَغذية تُصدرُ من كُل أَنَحاء العَالم و حَتى من أَرض العُروبة أخوة الدَم و الخُبز ..

بعَد مُعتَرك منَ الخَديعة ، و صَل بنَا الحَال أن تفند كُل مَا يدعيه العَرب ..

عُروبة نقتاتُ منهَا ، و شَماعة لحصَر كُل أخطائنا خَلف قناعَها ، حتى تَجردنا من إنسانيتنا و من حسنا العَاطفي و من الحب الذي لا نَعرفهُ سوى بالكُتب و المُسَلسلات الدرامية ..

هَكذا وَصلنا و بكُل مُرونة إلى الدَموية ، متخفين أقنعة عدة ، و لكن أرهقتنا المُسَميات و المَوت وَاحدٌ ، إن لم تُقتل بَأيادي العَالمين قُتلنا ببنادق من ولَيناهم زمَام أمورنا ، نحنُ ضَحايا قوميتنا و أديانَنا و مَبادئنَا التي بال عَليهَا و عَلينَا تَجربتنا معها ، و لا زلنا نَكذبُ على الواقع و على المَاضي و مُستقبلنَا المَوهُوم ..

و لأن الحُب هُو الحَلقة المَفقودة ، يَجبُ أن تَتَخذ كُل و سَائل المُداراة ، مُداراة المُجتمع الطَائفي القَبلي العُنصري المُتشَدق بالانفتاح و هُو في الحَضيض ..

غُيوم من الظُلم مُتلبدة فوق العَاصمة العتَيق ، و تَصطف السماء مع القَوي ، و الهَش تتركهُ للغُبار و عواصف الشمال ..

الجَميع ينتظرُ ذاكَ المُخلص الذي يَأخذُ الحق لأهله ، و على أرصفة الانتظَار تَموت المَسافات و الدَقائق التي تَلسعُ المَارة..

لا تَنتظروا سَادتي جَعجَعة الغُيوم ، جمَيعُنا وعدنا بالفَرج ، و لكن فَرج غَابَ في سَراديب الزمَان و لم يَعد ..

بلسم أهل هَذا المكان هُو السجائر ، و الصُحف الصَباحية ، التي يُمسح بها زُجاج المَتَاجر و تُلف بهَا مَناقيش الزَعتر و الجُبن و الذُرة ..

و لكن هَذا الصَباح لَيسَ كَأي صَباح ، كَانت الصَحيفة لهَا أهمية الدَم ، تَتَناقل الأَعين العَناوين بكُل مُرونة ، تَتَبع السُطور كَأن هُنَاك حَدثاً جَلل ..

بالعنوان العَريض ، يَفضح الصَحفيونَ فتَاة لم تَرتَكب جُرماً ، بَل قُتلت بيد رَجُل ..

إنهُ شَاباً يَهودياً ..

شمعون ..

اسمهُ ، رَقم جَريمتهُ ، هَو لم يَقتُل ، لم يُطلق طَلقة ، لم يَسن سكينهُ ، لم يقطع مفاصلَ ضَحيته ، لأنهُ هَو أيضاً ضَحية في سلسلة التَمييز الطَائفي ..

هُوَ الحُب وَحده من يجَعلنا مُجرمين ، نَقسو عَلى قُلوبنَا ، و نُجردُ أرواحنَا ، و نتَباكى على مَا صَنعناهُ بأجَساد نَهَايتُهَا إلى وعَاء الديدَان ..

أخرج سَجَائركَ سيدي ، و كَأس نَبيذكَ ، و اشَرب من نَخب مَا جَنَاهُ قَلبكَ ، لا تُراقب الوَقت ، الوَقتُ ليس من نَصيبكَ ، إنكَ قَد عُفَيت عن خدمتك الإلزامية ، و هَا أنتَ تُحدثُ قَلبكَ..

هو الوَقت الذي يُجردهُ من النَوم كل صَباح ..
يمَسحُ أجفانهُ بنور الصَباح ..
كَأنَ تَل أَبيب لَيست تَعرفهُ ..
إنهَا لم تُنجبهُ ..
جَاء مع أَهله من لُندُن عندمَا عَرف بأنَ لهُ وَطن ، لَيس بوَطنه ، و لكن تَقول أسَاطيرهُ بأنهُ من هَذه البُقعة قد كُتبت تَحت اسمهُ منذُ الأزل ، و لأنَ الأزل ليس بنَاطق فالكَذب مُباح في حَضرة الله ..
من هُوَ الله بالنسَبة لهُ !!
الخَيال المبحوح على سُطور تَوراته ..
يتوارثها القَوم جاهل عن جَاهل ، حتى تَصل بدَمارها إلى القَلوب ، فتهمد هُناك بين شُقوقُ الذَات المُتطَايرة إلى السَماء ، في كُل صَباح يَقول في أعماقه :
هل هَذه هي الحَياة !! ..
لا يا عزيزي ليس هَذه الحَياة التي كانت تَحلمُ بها رُوحكَ ..
و أيضاً على الضَفة المُقابلة للجدار الفَاصل ، حكَاية أُخرى كَانت تَنسجها البيوت العَتيقة ، حيثُ نُقطة الضوء الخُلبي ،

و تَحتَ ظَل الغَياب ، تَتَربعُ أُنثَى ارتَوت من الإيمَان حَتى أَضَحت قبلة للخُلق العَالي ..

كَانت الأمُ في ذَاكَ البَيت العَامر بالرجَال ، تَحلُم بأن تُنجبَ رَجُلاً ، كَانَ كُل شَيء جَاهز على حَسَب رُؤية رَأتهَا في نَومهَا ، تَقول تلكَ الأُسطورة في منَام هُوَ أَقربُ للخَيال :

بأنَ النَبي دَشَنَ رُؤيا تلكَ الأُم في منَامهَا ، قَالَ لهَا في زَيارتهَا النُورانَية :

سيأتيك طفلاً ، أحضَرتُ لهُ اسماً ، نَاديه بصلاح الدَين ، فَإنهُ من الفَاتحين ، و هوَ من رجَال الله المُقَربين ، أَعطه مَا يُريد من حُب ، يُعطك مَا يُريد من شَوق ، يَموتُ مَظلوماً في رَيعَان شَبابه ، و يُبعَثُ شهَيداً جمَيلاً في صُفوف العَاشقين ..

استَيقظت الأمُ لَيلتهَا مَذعَورة ، و العَرقُ يَتَصَببُ من جَبينهَا ، و الهَواءُ المُتَدفق إلى صَدرهَا يَكَادُ يَخنقهَا :

ـ بسم الله الرَحمن الرَحيم ، بسَم الله الرَحمن الرَحيم ، اللهم اجعلهُ خَيراً ، اللهمَ اجعلهُ خَيراً ..

استَيقظَ زَوَجهَا مَذعوراً على مَا حَصَل لهَا :

ـ خَير يا أُم فراس ، بسم الله عَليك ، إيش صَاير ، شو في ! ، أيش مَالك يا بنت الحَلال ، دَكيكة اشَربي مي ..

كَادت أَن تَتَشردق بهذا العَالم ، و لكنَ زَوجهَا بلُطفه طَردَ منهَا الوَهم ، و هوَ يَقرأُ على وَجههَا آيات من القُرآن الكَريم ، و يَنفُثُ على وَجههَا ، و يمسحُ على رَأسهَا ، و يُتَمتم بالأدَعية المُختَارة :

ـ خَير يَا أُم فراس ، مَا عَا كَلبك شَر ..

كَانت تَأخُذ الهَواء بصُعوبة ، كَأنهَا أَول مَرة تَستنشق هَواء مثلهُ :

ـ كُلو خَير يا أَبو فراس ، لا تَخافش ، هوَ لا زم أَفرح و أزَغرد يا أَبو فراس ، رُؤية خَير و بَركة ، شُفت سيدنَا النبي بالمنَام ، جَايبني يَبشَرني بوَلد ، حَامل اسَمو ، و كَللي سَميه صَلاح الدَين ..

ابتَسمَ الزَوج ، و تَهَلل وَجههُ ، و شكر الله على هَذه الأُعطَية و الهبة :

ـ أيه الحَمدُ لله يا أُم فراس ، من بُجرة رَايح و جار خَاروف و ذَابحو بالحَرم الأبراهَيمي عا هَالخَبرية ، وكَلي الله يا بنت الحَلال ، لازم تَفرحي ..

انكَسرت الزوجة و في وَجههَا مَسوح حُزن :

ـ بس يا أبو فراس ، النبي بَشَرني إنو الوَلد ، رَاح يَكون من الفَاتحين ، و رَايح يموت شَهيد ..

ظَهر الارتَباك على وَجه الزَوجين :

ـ الحَمَد لله على قَضَاء لله و قدَره ، شَو طَالع بايدنَا يَا بنت الحَلال ، كُل أشي مَكدر و مَكتوب ..

رَاحت اللَيالي تَركُل الهُموم شَيئاً فَشَيئاً ، حَتى انتَفخ بَطن الأم بالحُب ، و مَا إن اكتَمَل نصَاب الرَحم ، حَتى تَعَالت الصَيحَات في الغُرفة التي طَوت بهَا الزوجة خَلاصهَا :

ـ آخ .. آخ .. آخ .. يَا يُمة إلحَكيني ، يا أَبو فراس إلحكني ..

ـ تَفضَلي يا أُم مَروان ، دَخيلك المَرة رَاح تَموت ، بَحَياتهَا ما صَرخت مثل هَيك ..

كَانت الدَاية أُم مَروان تَخلعُ جلبَابهَا و تُشَمرُ على سَاعديهَا :

ـ بَعد وَكف هون ، يَا زم رُوح لَحَكني بالمَي السَخنة ، و جَيبلي منَاشَف بيضَة و نضَيفة ، و بطَريكَكَ نَاديلي مَقصوفة الرَكبة أَم تَحسين جَارتُكم ..

كَانَ الزَوجُ مُصَاب بهستيريا اللبكَة ، و مَرعوبٌ جداً من صَوت الزَوجة و فُتور الدَاية أُم مَروان :

ـ يا الله حَالاً يا أُم مَروان ، بَس دَخيلك لحَكي المَرة رَاح تُموت ..

أُم مَروان المَرأة التي لا تُحب أَن يُملي عَليهَا أَحد مَاذا تَفعل ، و صَاحبة اللسَان السَلط الذي لم يَسلم منهُ أَحد :

ـ تَفضَل يَا أبو فراس ، شُوف شُغلك ، أنَا تَاركة البَيت و وَلدهَا أنتَ ..

جُنَ الزَوج بَهذا الكَلام و قَسَاوة هَذه الدَاية :

ـ دَخيلك يا بنت الحَلال ، خَلص سَديت تُمي ، و لا عَاد تَسَمعي مني و لا كَلمة ، و رَايح أعمَل كُل شَيء بدَك أَياه ..

ركَضَ الزوج إلى المَطبخ يُجهَز المَاءَ السَاخن ، و نَادى بأعلى صَوته من النَافذة المُطَلة على بَيت الجَيران :

أُم تَحسين ، يا أُم تَحسين ..

أم تَحسين ..

بَيت سر الجَارة ، و الشَريك المثَالي في كُل جَلسة نَميمَة ، و مَبعث السُموم خَلف كُل حَكاية ، في المَصَائب تَتَبخَر و لا يُرى لهَا أَثر ، و في الرخَاء تَجدهَا كَالثُعبان تَلمزُ هَذا و تَشتَمُ هَذا و كَأنَ شُغلهَا الشَاغل هُوَ الشَتم و اللمز ..

ـ أيوه يا زَلمة ، بَخشت طَبلت أذنَاتي ..

ـ إلحَكيني يا جَارة ، المَرة بتولد ..

ضَربت كَف على الكَف ، و مَسَحت وَجههَا بكَفهَا :

ـ هَيني جَاية ، بَس لطَفي النَار تَحت المَلوخية ..

كَان الصُراخ في غُرفة أم فراس يَعلو كُلمَا اشتَدَ الطَلقُ عَليهَا ، و كَانت الدَاية تصَرخُ في وَجههَا :

ـ شَدي ، يا الله ، شَدي كمَانت ..

و لكن لا مَفر من الألم :

تَدخُلُ أُم تَحسين ، تَخلع شَالهَا من رَأسهَا ، تتَظَاهَر بأنهَا على عَجَلة من أَمرهَا ، يسَودهَا الرُعب على مَنظر أم فراس ، و لكن الدَاية تَعرفُ حَركَات النسَاء الكَاذبات ، و لَسَانهَا لا يَعرفُ المُجَاملة و لا المُدَاهَنة :

ـ شُو يا أُم تَحسين أجيتي ! ، الله لا كَان جَاب الغَلا ، يا بنت الحَلال بدَك جَاهَة !! ..

كَان صُراخ أُم فراس يَقطَعُ الحوار ، و يَدوى في الحَي ، و المَسكين أبو فراس خَلفَ الباب يَموتُ رُعباً ، هَذه أَول مَرة يَشهَدُ ولادة بهَذا الأَلم :

ـ يا رَب دَخيلك بالمَرة و الوَلد ..

هَذه المَدينة لا تَعرف الله سوى بالأَوقات الحَرجة ، و أَيَضا المُدن المَجاورة كَالمثل ، كَأنمَا السمَاء عَقدة سلسَلة من الغيوم تَضَامُناً مع الألم ، و الرَعدُ يُسَبحُ بحمد الله ، و العَويل يُسَبحُ بَحمد المَكَان و الزَمَان ..

ـ يا الله يا أُم فراس ، مَية الرَاس طَلعت ، شَدي يَا بنت الحَلال ..

ـ الله دَخيلك مَا عَاد أَكدر ..

الدُموع تنهَمر على الخُدود ، تَسيل معَ العَرق ، تَتَدفق إلى العُنُق ، و تَشتدُ على الصُراخ ، لتَظهر عُروق الوَجه ، مع دَعوات خَلفَ البَاب ، و رُعب على وَجه أُم تَحسين ، و الدماء تَتَدفق من الفَرج بشدة :

ـ آخ ، آخ ، آخ ..

ـ يا الله ، كَمَان شَوي ..

و خَرج الجَنين بلون الحَنين ، أبيض كالياسمين ، أَزهَر كَالزنبق الجَبلي ، مَصَحُوب بالبُكَاء ، يَتَدلى منهُ الحَبل السَري ، الذي يَسري به الأمَان و الحُب و الطَعَام .. كَانت طفلة كَسَناء القَمَر ..

قَطعت الدَاية الحَبل السَري ، و أَمسَكت الطفلة من القَدمين ، و بَدأت تَضَربُ على مُؤخرة الجَنين ، فانبَثَق صَوتُ البُكاء من بَعد عُسر العَنَاء ..

فَقدت أُم فراس الوَعي ، أَخرجت الدَاية لَوح من شَمع رَائحته كَرائحة النَعنَاع ، قَربتهُ إلى أنفهَا ، تَحركَ الرَأسُ ببُطء :

ـ شُو صَار !! ..

ـ مَبارك يا أُم فراس ، بنت مثل الكمر ..

بَكت أُم فراس بشدة ، كَأنهَا أَمطرت ، و في الحَقيقة أمطرت بشَدة ، كَان الرعد مُدوياً بقوة ، هَذه المَدينة المُؤنَثة تَكره

البنَات ، رجَالُهَا غلاظ شداد ، يَتَمادونَ على عَطَاء الله في الرَخَاء ، و في الشَدَائد لبَاسُهم لباس التَقوى ..

و لكن السمَاء على كَذبهم لا تَقوى ، تُمطر كُلمَا أنَجبت لهُم الأرحَام أُنثى :

ـ يا سَواد لَيلك يا أُم فراس ، يا مَشحرة يا سَايبة ، و شُو بدك تكولي لأَبو فراس ..

لُفت الطفلة بشَرشَف خَفيف من بَعد أن خَفَ البُكَاء ، ظَهرَ الحُزن على أُم تَحسين ، هيَ أيضاً حَامل و خَائفة من أن تُنجب طفلة الإناث هُنَا في مَحَل خَبر مَنبوذ ..

هَذا قَانون العَادة هُنَا ، رَبُهم في المسَاجد ، و خَارج المسَاجد رَبُهم مَا توحى بهم رُجُولتهم ، حَملت الطَفلة أُم تَحسين تَبكي المسكينة لبَخت جَارتهَا التي ظَنت أنَّ في رَحمهَا طفل ، و لكن خَيب ظَنهَا الله ، و أَتاهَا بطفلة :

ـ ضُميهَا يا بنت الحَلال ، البنت بَتستنى فيكي يا أُم فراس ..

رَفضَت أُم فراس أن تَنظُر إلى ابنتهَا ، كَأنهَا أحضَرت للبَيت عَاراً كَبيراً :

ـ يا مشحرة يا عَيوش على هَالخَلفة ، يَا سَوادك يا عَيوش على هَالبنت ..

غَضَبت الدَاية على هَذا الكَلام :

ـ اسَمعي يا عَيوش ، و كَسَماً بالله إذا مَا بدك إياهَا للَبنت باخَذُهَا مَعي ، و لجهنم الحَمرة ، و لَعُمر لا حَدة يَرث ..

ـ أُخذيهَا ..

كَان أبو فراس يَنتَظرُ مَلياً خَلفَ البَاب ، يَنتَظر أن يُسَمي الطَفل بفَياض على اسَم جَده الذي كَان أَحد إقطَاعيين المَدينة العَتيقة :

ـ بَشَري يا حَجة ، أروح أَجيب الحَلوان ! ..

كَانت الداية تَمسحُ يدَهَا بمنشَفة سَميكة :

لا يَغُرُك تَأنيث هَذا الكَوكب ..

فَهو مُحتَل من إقطَاعيين الذُكور ، و لو استَطَاعوا أن يُغَيروا اسم الأرض لَفعَلوا ، و لكن حَملت الآلهة فَوق كُل الذُكور ..

سُؤال رُبمَا يَخَافهُ البَشَر ! ..

لمَاذا الإله اسمهُ مُذكَر و ليس مُؤنثاً !! ..

لن أُجيب ، لأن الإجَابة قَاتلة و وَقحة للغَاية ..

و مع أن جَميع المخلوقات على هَذه البَسيطة تَميلُ إلى التَأنيث ، فَلا يُغريكَ تَسَلط الذُكور على مَسَاحة هي رغم أُنُوفهم مُؤنَثة ..

ـ هَا يَا حجة ! ، أَجيب الحَلون !! ..

ـ طَول بالك يا زَلمة ، أنتو الزلم بَصَلتكُم مَحروكة ..

ـ لا حَول و لا كوة إلا بالله ، خَير صَابو أشي الوَلد !!

نَعم تَفكيرهُ بالصَبي ، أمَا الأم التي حَملت بطفله تَسعة أشهُر فَإلى الجَحيم ، مَا أَوقحَهُ من مَوقف ، لَقد أسَرت الدَاية في قَلبهَا هَذا الأَمر ، عندمَا بَكى أَبيهَا على ابنهُ الذي خَرج من رَحم زَوجته مَيتاً ، و نَسي أن يَبكي على زَوجته التي لاقَت ذَات الحَتف ..

ـ اسَمع يا أبو فراس ، أنتَ زَلمة مُؤمن بالله ، و كُلشي من الله يا مَحلاه ..

ظَهر الخَوف على مَلامح أَبو فراس كَأنهُ يُبشر بالمَوت :

ـ لا تُكوليهَا يا حَجة ..

ـ طَول بالك عَلي يا ابن الحَلال خَليني ألكُط نفسي ، الله يَلعن هَالعَادة ، المَرة بخَير و الجَنين بألف خَير ، بس إجتك بنت مثل الكَمر ..

سَقط أبو فراس أرضاً ، كَأنَ القُدس سَقطت بأيادي الغُزاة ، و ضَرب كَفاً على كَف ، و لم يَلتَفت إلى تلكَ المسكينة التي حَملت ببنته تسعة أشهُر في بَطنهَا :

ـ اسمع لَكُلك ، إذا مش طَايكهَا تَرى و كَسماً بالله العَظيم باخُذهَا و بَربيها عندي ، لعَمى على هالمصيبة ، كُل مَا واحد إجتُ بنت بصير يندب حَظو مثل المَطَلكات ..

ـ يا سَواد وَجهك يا أبو فراس كدام التُجَار ..

لم تَتَحمل الدَاية الإهانة التي تَلقتهَا الطفلة في أول سَاعَات حَياتها ، أَخذَتهَا من غُرفة الصَدمة ، و لَفتهَا بغطَاء ، و

مَشَت بهَا غَير آبهة بمَا يَجري خَلفهَا ، و طَرقت البَاب بعُنف مُعلنة غَضبهَا على أَهل الدَار ..

كَانت الطفلة في مُكتمل جَمالهَا ، كَأنهَا خُلقت للحَياة ، بوجههَا و بَياضهَا و أُبهَتهَا :

ـ جيعانة يمة ! ..

هَكذا بَدأت الدَاية مَعَها مشوار الحَياة ، ب : يمة ..

كُلُنَا بحَاجة لهذه الكَلمة ، حَتى و لو لم نَعيهَا و لم نَفهم محتَواهَا ، على الأكيد بأنهَا كَلمة تَشي بالأمَان ، و هَل تَفهم طفلة لم تَبلُغ من حَنان الأُمومة إلا يوماً !!

يَوماً وَاحداً فقط ..

تُوضع النقاط على الحُروف ، الجَميع رَفضَهَا كَأنهَا جَريمة و فَضيحة و عار للدَار و أَهله ، يَبقى السُؤال يَطرح نَفسهُ ! ، مَا هي هَذه القَسوة التي في قلب أمهَا حَتى تَرفُضهَا و تُلقي بهَا في أياد لا تَعرفُ مَا يَحلُ بابنتهَا ..

ـ يا حَسرتي عليك يا أم فراس ، استَكثَرتي عَلي بولد اسميه باسم جدي فَياض ، أَخس عَليك يا مَرة ، و أَنَا بَكول بحَالي أُم فراس أُم رَجال ..

ـ و الله يا ابن الحَلال مش بأيدي ، هَاظا بايد رَبك ..

ـ لو بدك تَجيبي وَلد كُنتي جبتي ، بس انت بدك بنت مشان تَتَباهي فيهَا ..

ـ يا زَلمة كسماً بالله مَا دَخلني ..

ـ مَاشي بصير خَير ، و هَسا نَيت كيف بدي أَوري وَجهي للنَاس بالسوك !!

تنامُ الطَفلة في خدرهَا ، كمَا يَطوفُ البَدرُ في السمَاء ، خَرجت من رَحم أُمهَا أُنثَى و لكن قَلبهَا قلب ألف رَجُل ، الجميع قَد استهَانَ بهَا ، و جَلب العَار لهُ و لمن حَولهُ ، كَان المَاء السَاخن يَغلي ، و تُجهَز المَباخَر في بَيت الدَاية ، و تُخرج الثَياب النَقية التي تَميل إلى اللون الوَردي ، جَميع من في الدَار مَشغول بهَا ، كَأنَ الطَفلة أُختاً لهُم :

ـ من وين هَالبنت يا حَجة !! ..

ـ هَاي بنت أبو فراس المَكدسي يا حجي ..

ـ و لويش جَايبتها معك ! ..

ـ يا حَسرتي عَليهَا ، أُمهَا مَا رَضَيتش تَتَكبلهَا ، و أبوهَا عَكلو ما كاعد بحملو ، كُلت بحَالي بَجيبهَا عالدَار و أنت

عالأكَيد ما بتزعلش يا شيخنا ، مسكينة البنية ما إلهَاش حده..

ـ حَسبُنَا الله وَنعم الوَكيل ، إنجنت النَاس يا حَجة ، مَالهن البنات ! ، مَا هَن خَلكت الله ، مَا بكَفيش المَصَايب يلي بتنزل على هالبلد ، كما بعترضوا على خَلفة الله !! ..

ـ شايف بالله يا حَجي !!

كَانت الدَاية في قمة الرَاحة ، لأن زَوجهَا رَجُل مُؤمن و من الصَالحَين ، تَعتز به لأَنهُ مَا رَفضَ لهَا أَمراً ، لَيس خَوفاً منهَا ، بَل انصَياعاً لَقول النبي مُحمد :

استَوصوا بالنسَاء خَيراً ..

قَاطع نقاشَهُم البنت الكُبرى :

ـ يُمة ، المَي جَاهزة ، بتحبي نَحممها نَحنه أو أَنت !

ـ لا يُمة أَنا جَاية ، هَاي البنت بنت أَبو فراس المَكدسي الله يهَدي أَبوهَا ، لو صَابهَا اَشي و الله مَا بنُخلص منهُم ..

تَنامُ الذُكور على جَنب ذَنبهم ..
كَمَا تَنامُ الثَعالب المَاكرة على فراء فَرائسهم ..
وَتطوي السَماء نَجومَهَا خَلفَ السُحب المُنَهطلة بالخَيرات ..
جَميعُنَا يُنَكر الخَير في حَال نُكران ..
الأُم تُنكرُ جَنينهَا ، و الأبُ لا يتَقبل مَا يبشَر به ، و الغُيوم تَلتَهم المسَاء ، و الطفلة تَغفوا من بَعد ليلة حَافلة بالبُشَرى ..
ـ كُومي تَحمَمي يا عيوش ..
لم تَقم عائشة من مَقام جنَايتهَا كَما تَظُن ، و هَل الأنثى إذا بُشَرت بالأنثى تُضَحي ضَحية جنَاية !!
عائشة وحدهَا تَعلم مَا الذي حَل بدَارهَا ..
هي التي أَنجَبت فراس و محمد و خَالد ...
و اليوم تَخونهَا الأرحَام كَما تَظُن لتُنجب لقوافل الذُكور أُنثى ، كَانت قَبل المَخَاض تُلقب بأُم البنين ، و تَمشي عَارمة في شَوارع المَدينة العَتيقة رَافعة رَأسَهَا بَين النسَاء ..
رُبمَا كَسَرتهَا صَرخَة الطفلة التي أَتَت ..

كَانت تَنزف بشدة قَبل الولادة ، لم تَسأل عن نَزفهَا أبداً ، و لا الدمَاء التي أُريقت على فراش الولادة ، كَانت تَنتَظر خُروج ذَاك البُركان الذي يَغلي في رَحمهَا :

ـ شُو يَا حَجة طَمني كَلبي !! ..

ـ افرحي يا عيوش ، بنت مثل الكَمر ..

أُغمي عَليهَا عائشة ، كَأنَهَا بُشَرت بطفل ذَكر مَات في حَال سَحبه من بَين فَخذيهَا ، كَانت كَالتي تَحتَضَر بَعد الإغماء :

ـ فيكي يا عيوش ، كُولي بسم الله ..

سَطَا على عَقل عائشة الهَذيان :

ـ الله لا يَوفكك يا حَجة على هَالبَشَارة .. !

كَانت تَدعو عائشة بَأحرُف مُتَقطعة ، كَالذي لا يَفهم و يَفهم في آن وَاحد ، أَي مسَاء هَذا الذي قَلب مضمَار حَياة أَبو فراس و أُم فراس في لَحظة سَعادة ، لا يَعرفُوا لمن يُلقون عَليه اللوم ..

فَهُم الذين تَفيأوا بالتَقوى أَيام مَديدة و سنين عَتيدة ، فَكَيفَ لهُم أَن يُوجهُوا تُهمة هَذه الطفلة إَلى الله ، يَخَافون من قَطَع الأرزَاق ، أَو من خُسوف أو كُسوف يَهزَ المَدينة و يقلب بهم

تَحتَ الرُكَام ، أَو يُلقي عَليهم حجارة من سَجيل فَيجعلهم كَعصف مَأكول ، أو يُغَرقهَم في البَحر ، أو يَحرق دُكَانهُم الذي يَقتَاتونَ منه و يَتَفاخَرونَ به في القُدس ..

دُكَان لذكَر وَاحد و أَربعة أخوات لأَبو فراس ، بَعد مَوت أبيهن حَرمَ أبو فراس الميراث للبنَات من بَعد وَليمة أقامهَا على شَرف المَوت ..

و بَعد أَن أُقيمت الوَليمة و أَكلنَ المسَخن و المَنَاقيش و المَنسف الفلسطيني الذَي أغرقهُ بالسَمن العَربي و اللحم ، قَام أَبو فراس فيهن خَاطباً :

ـ اسمَعن يَا خَيات ، أَبوكن و الله يَرحمه ، و أُمكن كمَان الله يَرحمهَا ، و مثل مَا بَتعرفن الدُكَانة ما حَده بَكدر يَكرب عَليهَا و لا يَكسمهَا ، و اَنتن مَا إلكن عَندي إشي ..

فُضَ المَجلس بدَعوات انهالت عَليه من أفواه أخوات مسكينَات ، كُنَ يَنتَظرنَ أَن تُقَسم التَركَة عَليهن حَتى يَعود إليهن رَيع الورثَة بَسند حَالهنَ المُتَآكل ..

ـ كُومي تَحمَمي يَا عيوش ، أنَا جَهَزتلك المَي السُخنة ، سَاعديني لكَومك يا أختي ..

ـ بَعدي عَني يَا فتحية و الله مني طَايكة حَالي ..

ـ بَصيرش هَيك يَختي ، بَعفن الجُرح عَنجَاسة ، و غَير رَحمة الله ما بَتشَافَيكي ..

ـ و يَعفن يَختي ، هُوَ جُرحك و لا جُرحي !! ..

ـ يَختي يا عيوش حَرام يلي بَتعمليه بَحَالك ..

اليَوم فَتحية تُواسي بمُصَاب أختهَا التي دَفعَتهَا لتزوجيهَا لأَبو فراس عنوة طَمعاً بالتَركَة التي سَيرثهَا من وَالده ، لن تَنسى ذَات لَيلة عندمَا جَاء أبو فراس مع وَالده و أَخواته يُريدُون خطبة عائشة ، و لكن رَفضَت هَذا الرُجَل بَتَاتاً ..

لم تَكُن عائشة سَهَلة وَقتهَا ، كَانت أَقوى مما يتَصورهُ أي رَجُل ، حَتى كَانت في صغرهَا لا يَسلم منها طفل في الحَي ، تَذكُر فَتحية عندمَا جَاء ابن الجَيران إلى أبيهَا يَشكو عائشة من الحَجر الذي لطَمتهُ به على رَأسه :

ـ و ليش مَا دَافعت عن حَالك يا حمَار !!

ـ كُلت بحَالي بَنت و مُستَحيل تُضرب حَده !!

ـ شُو إن شَاء الله مَنك شَايف البنَات كَليلات حَربة ، يلا امشي من هَانه كَبل مَا أَكمل عَليك ، يَلعن أَبوك سَافل ..

ـ شُو كُلتي يا عيوش ، هَاظ الزَلمة مَتلتل فُلوس ، و الله لتَعيشي عيشة كَارون ، اسمعي يا هَبلة شَيلي من رَاسك مَحمد العَزاوي تَرى مَا بسوى كشرة بَصلة كَدام هَاظ الزَلمة ، شُوفي عَلى هَالزَلمة عَز و فَخفخَة و خَدم و حَشم ، و الله غَير يَنيمك على رَيش النَعام ..

ـ شُوفي شَواربو مثل صَف النَمل المَفركَط ، و لا سنَانو يالله يَكرفو على هَالمنَظر ، و الله أَبوه لو مَخلف كرد أَحسنلو ..

ـ يا الله ما أَهبل مُخك المَعفن ، يا حَمارة شُو بدَك بمنَظرو ، بُكرة لا صرتي عندو بالَبيت بتَعمليلو إعادة تَرمَيم ..

ـ ها ها ها ها ، أنت إبليس مَا بَكدرلك ..

ـ اسكَتي يا عيوش ، شُفتي بليس يلي بتَحكي عَنو ، كُنت بهالزَمنات أَعطيه دروس بالسكيفة و أنَا بنَظفهَا ، يَلعن اَبو السَكَايف إذا مَا بتَهد الحَيل ..

كَانَ المَشهد في الجَانب الآخر يَنمو على ضَوء القَمر الذي حُجبَ بالغَيوم ، و هَا هي الغيوم تَتَحدث هَذه اللحَظة عن حكَاية أُخرى لا تَعلم المَولودَة لمَا ولدَت و لا الوَالدة لمَا أنَجبت ..

لم تُنجب أحداً ..

أَنَجبت قَمراً ..

ـ شُو يا أَبو فراس ! ، ما حن كَلبك !! ..

كَانَ الدوار يَسري فَوق رَأسه ، أَلف حكَاية مَعقودة بألف حياكة ، القَدرُ يَنسج و الدُنَيا تَسير رُغماً عن جُوع الفَقير و غنى المُشبع بالدُهون ..

ـ شُوف يَا أَبو فراس ، يومتن الأَمس ، رُحت على بَيت الدَاية ، لَكيت النَسَاوين و البَنَات مَحاوَطَات البَنت ، تُكول بَصير وكع ببيت عُميان ، بَنت مثل الكَمر ..

أعَاد أَبو فراس هَيئة جَلسته ، و حَك رَأسهُ جَيداً ، و تَنحنح :

ـ و شُو كمانت !! ..

سُرت فَتحية بتَجَاوب الأب الذي عُطب عَقلهُ عندمَا بُشر بأُنثَى :

ـ البنت بَيضَة مثل الثَلج ، عَليهَا شك عيون تَكول عيون غُزلان ، و يَا شَفايفهَا مَا بتَطلع بَرة البَيت من جَمالهَا ..

كَان يُريد أَن يَطرُد الحَديث بهَيبته التي تُشبه هَيبة الصَراصير :

ـ مطول الغَدى يا مَرة !! ..

سُرت فَتحية جداً ، إنهَا الوَصية على عَائلة أَبو فراس ، كَمَا أن أَبو فراس يُحب استشارتها في كُل صَغيرة و كَبيرة :

ـ و شُو كَمانت يا فَتحية !! ..

ـ يا زَلمة يَسعد رَبك على هَالزُلومية ، أي هَا من زَمَان افردهَا ، بُكرة لا كَبرت البنت بتَصير أُخت رجَال ، و بنت أَبو فراس المَكدسي ، يلي بتطلب المَهر و بتتمنى ..

تَدخَلت أُم فراس لتسمع زَوجهَا أن الغَداء قَد جُهز ، و المَائدة تَنتَظر :

ـ تَفضَل يا أبو فراس ، الأَكل جَاهز ..

هَذا الأسبوع الثَاني ، السَاعة الثَانية ، و دَقيقتَان ، و البنت خَارج منزل أبيهَا ، و حَتى أُمهَا لم تَرهَا بتَاتاً ، قَسوة مَا

بعَدهَا قَسوة ، و المُصَيبة بأن الأب لم يَعُد يَنام في غُرفته مع زَوجته ، و لم يَرتبط لسَانهُ بلسَانهَا ..

مَاذا يَجري على هَذا الكَوكَب ! ، و على هَذه القَارة ، و على أَرض بَيت المَقدس بالتَحديد ، جَميع الأَمَاكن مُقَدسَة من البَاب الكَبير إلى قُبَة الصَخرة ، إلى المَقبرة القَديمة ..

الإيمَان يَتَجول في كُل مَكَان ، يَسيرُ عَارياً حَزيناً هُنَا و هُنَاك ، أُنَاس قَسموا أَنفُسهم ثَالوثياً و وَضَعوا على أبواب منَازلهم كُل حَزب بمَا لَدَيهم فَرحين ..

أيةُ فَرحة تلكَ التَي يَتَصَارعُ عَليهَا أهل الإيمَان في هَذه المَدينة العتَيقة !! ..

إيمَان كَاذب مَمشوق مُنَحل ، لا يَعرف الحُب و لا البُغض ، و لكنهُ يَعرف الدَم و كَيف يَذبح الأَخُ أَخَاهُ من الإيمَان ..

و لكنَك في مَدينة جَميعُ من فَيهَا يَنتَمي إلى قَطيع الإنتمَاء السَواد المَحشو في أدمغتهم ، و على الإيمَان القَوي يَقضَي على الإيمَان الضَعيف ، فَيا تُعساً للآلهَة التي لم تَعرف كَيف تُفَكك تلك الشَيفرة الغَير منَطقية بين أَبنَاء هَذا البَلد ..

القُدس ، أُورشَليم ، و هَلُمَ جَرا ..

و لا تَتَحدث عن الجَرة هُنَا لأَنكَ في مَحَل خَفض جَرة ، لَيسَ لكَ عَلامة ليستَدل بهَا قَاتلكَ إلا بمنظَركَ الخَارجي ، بلحيتكَ ، بحجَابكَ ، بطَيلسَانكَ ، بَعمَامَتكَ ، بَصَليبكَ ، بَنَظَراتكَ ..

مَدينَة بُنَيت على الكَراهية ، جَميع من فَيهَا يَكَرهُ بَعضهَم بَعضاً ، لم يَبقَ جَيش من جُيوش التَاريخ إلا مَر من هنُا ، إمَا قَاتلاً إمَا مَقتولاً ..

و اليَوم و مَا اَتَعسَهُ من يَوم ، فَأنتَ مَقتول مَقتَول لا مَحَال ، إن لم تَمُت بسَيف كَارهَيكَ ، فَستموتُ غَيضاً ..

مُحاصراً بكُل شَيء ، بالقَضايا ، بالعَقَائد ، بالوَطَنية ، بالقَومية ، بالأَوهام ، بالخُرافات ، بالخُزَعبلات ، بذَاتكَ ، بدَاخَليتكَ ، بَخَارجيتكَ ، فَأنتَ مُحاصر لا مَحَال ..

و بالرُغم من أنَ الإنسَان أَخو الإنسَان ، فَإنَ الإنسَان على هَذه الأرض قَد مَات شَهيداً ، و لا تَعلم كَيف مَاتَ شَهيداً ، شَهيداً مَعَهم أو شَهيداً عليهَم فَأنتَ لا تَعلم لا تَعلم ..

سَتَعلم عندمَا تَموت بخَنجر ، أو بحَجر ، أو برصَاصَة طَائشَة ، تَقتَحُم جَسدَكَ ، لتُفَارق من بعَدهَا كُلَ شَيء ، تُفَارق

الهَواء و العداء و البَلاء ، لتَدخُل في كَابوس آخر يُدعى البَلاء و لكن من نَوع آخر ..

وحَدهم الذين فارقوا هَذه الحَياة الذينَ طَووا أَوهامهم تَحتَ التُراب من نَنتظر شَهَادتهم ليخبرونا عن الحَقيقة ، حَقيقة الحَق الذي نَنتظرهُ ..

لكي لا نَبقى حَيارى بَينَ لَفيف من الاَفكَار و لَفيف آخَر ، نُريدُ الحَق مهما كَان ، لَقد أُرهقت الأَسوار ، و القنَاطر ، و الطُرقات الضَيقة ، و الحَجيج ، و السُكَان ، و الشيوخ ، و الرُهبان ، و الحَاخَامَات عن البَحث عن الله ..

و الله هُوَ الحُب لو كَانوا يَعلمون ..

و لكن لعَمري إنَ الحَق أَبلج و البَاطل لَجلج ..

ـ بسم الله الرحمن الرَحيم ..

استيقظ أهل الدَار على صَوت أَبو فراس في الثُلث الأخير من اللَيل ، كَان يَنَامُ في الديوانية التي يُجَالسُ بهَا أَبناءه بعد كُل عَصر ، رَفض الانخراط في غُرفَته مُذ أن أَنجبت لهُ زَوجتهُ طفلة ، إنهُ كَابوس الرجال الذي يُحيط به هَذه المَدينة ، شَيء وَاحد مَحشو في أَدمغتهم المتيبسة :

فَلتُنجب جَني و لا تُنجب بنت ..

من المُصيبة أن يَكون لَديكَ طفلة ، لأَن القَاعدة تَقول : هَم البنَات للممَات ..

قَوَانين مَا أَنزل الله بهَا من سُلطَان ..

قَوَانين مُتَصَلبة في القُلوب المُتَحجرة و الأدمغة المُتَخَشبة ، و لكن مَا الذي حَدث يا تُرى حتى استَيقظ أهل الدَار مَذعُورين !! ..

ـ الحَقيني بكاسَة مَي يَا مَرة ..

فَتحية كَانت تَنَام مَع أختهَا حَتى تَزول سَحَابة الحُزن من البَيت ، و تَعود المياه إَلى مَجَاريهَا ، أيةُ مَجَاري هَذه التي لا تَعرفُ المَياه النَقية من القُلوب النَاصعة !! ..

إنهَا مَجَاري مُلوثَة بالذُكورية العَفنة التي انتَشَرت في هَذه المَدينة من غَير أية إيذان !! ..

ـ بسم الله عَليك يا أبو فراس ، مَالك يا زَلمة فَيكتنَا و فَزعت الدنيا ، شُوف شُباك جَارك أَبو صَلاح ، الثَاني فَاك من صُوتك !! ..

كَان العَرقُ يَتَصَببُ من وَجهه كَأنمَا يَهبطُ من السَمَاء ، يُغرقُه و يُلجمهُ و يَخُرجهُ كَائناً آخَر ، و الحُمرة التي في وَجهه لم يأتي التَاريخ بهَا من حُمرة ، و مَا أدراك لعَل شَراايينهُ قَد تَفجَرت من الخَوف :

ـ هَاي المَي ، اشرب يا أبو فراس مَا عَا كَلبك شَر !! ..

كَان يَشرب المَاء كَأنهُ كَانَ في جَهنم دَهراً ، و أُخرج منهَا لَيشرب من أول كَأس أمسَك به :

ـ عَا مَهلك يا زَلمة ، كَاعد بَتَكبكب على كَلابيتك ، باينتك شَايف منَام بخوف ، خَير اللهم اجعلو خَير !! ..

لا زَال يَشرب المَاء و الرُعب قَد دوى في أنَحاء جَسده الدَاخَلي و الخَارجي :

ـ طَولي بالك عَلي يا بنت الحَلال ..

كَانت الزَوجة تَقفُ جَانباً ، قَد أنَاخ بهَا الخَوف و الفَزع ، هَذه أول مَرة تُشَاهد زوجَهَا بهَذه الحَالة المُرعبة ، تَدخَلت أُم فراس و أَخيراً :

ـ أَنا رَاح أَطلع طَاسة الرَعبة ، و أَعَبيلك إياهَا مَية زَمزم ، و أَكرالك عَليهَا آية الكُرسي ..

كَأنَ العَتب قد زَال من قَلب أبو فراس :

ـ بتكوني عَملتي خَير يا أم فراس ..

ابتَسَمت ، و أسَرعت إلى غُرفتهَا لتُخرج لهُ طَاسة الرَعبة و تَملئهَا بمَاء زَمَزم و تَبدأ تُتَمتم عَلى وَجه المَاء آيات من الذكر الحَكيم :

ـ تَفضل يا بعَد عُمري ..

أَراد أن يَبكي ، و لكَن هُنَا الرجَال لا تَبكي ، تفضل المَوت على البُكَاء و خُصوصاً أمَام النسَاء ، فَالبُكَاء في حضَرة النسَاء حَرام بل كَبيرة من الكَبائر ، و لكن الذَنب الذي اَرتَكبهُ بحَق الطفلة كَان فَضاً عَظيماً ، و لا ذَنب للأم و لا للطفلة به ، إنما هي هدية الله للبَشَر لعَلهم يَرونَ منهَا خَيراً :

ـ يسلم عُمرك يا أُم فراس ، و ما يَحرمنَا منك ..

تَمسمَرت فَتحية في مَكَانهَا ، و حَاولت أَن تُخفي الضَحك في أحشَائها قَدر الإمكَان ، و لكن الليل يَستُر مَا لا يَكشفهُ النهَار ، فَتحية تَتَدخَل :

مبين عَليَّ لازم أروح عَا بَيتي ، الحَمد لله بَاينتهَا رَجعت المَي لمَجَاريهَا ، بَس كَبل مَا أروح عَلى البَيت لازم نَرجع البنت لعَندكم ..

ـ اشَرب يا أبو فراس هَالميات ، فيهن بَركة زَمزم و مكري عَليهن ، و إن شاء الله مَا تَشوف شَر ..

ـ عَاشَت إيدك يا أُم فراس ..

أَخذَ العَجبُ من قَلب فَتحية يَكبُر و يَكبُر ، و لكن مَا الذي جَرى حَتى انقَلب الرَجُل بلحَظة ، فَهي التي لا يَهدأُ لَهَا بالاً حَتى تَعرف كُل صَغيرة وَكَبيرة :

ـ لا كَبل مَا أروح عَالبيت بدي أعرف شُو يلي صَاير مَعك ، و شُو شُفت بالمنَام ، و ليش إنكلبت فَجأة ، و إذا بدك تَرجع البنت و تَكبلتهَا هَسا نَيت بدي الحَلوان ..

ضَحك أبو فراس من مَكَائد فَتحية التي لا تَنتهي ، فأسرار العَائلة جَميعُهَا في جُعبة فَتحية ، هي التي تَأتي كُل مَسَاء

إلى بَيت أَبو فراس لكَي تُحضَر أَسَرار الجيران بَل مَا حَدَث في المَدينة من كَوارث دَاخل البيوت و خَارجَهَا ، و لكن الجَميل بهَا بأن سر أختهَا لا تُعطيه لأحد ، كَانت المسكينة تَنتَظر الحلوان من أَبو فراس بالمَولود الجَديد ، و لكنَ خَاب ظَنهَا ، و انَكسر قَلبهَا على أُختهَا و زَوج أختهَا ، هي من جَمعته بالحَلال تَحت سَقف وَاحد ، و لكن لا تُريد أن يَقع هَذا السَقف فَوق رُؤوس سَاكنيه ، و خُصَوصاً هَذا السَقف يَحمي رَأس أختهَا التي تحبهَا من أعماق قَلبها ، و التي لم تَرفض لهَا طَلباً كَان صَغيراً أَو كَبيراً ..

ـ أَنا كَايمة أَعمل كَاسة شَاي بالمَيرميمة مَشان نَكعُد و نسُولف عَا روَاك ، و كرب يَطلع الفَجر ، بدنَا نَخلص من هَالسَالفة ، لأنو طَكت مَرارتي ، و مَا ضَللنَا حَيل نحرك أعصَابنَا عالفَاضَي ..

أَبو فراس كَان مَشغولاً بإزَالة العَرق من جَبينه ، و يبتَسم إبتسامة عَريضة على فَتحية التي يعَلم مَا يَجول في دمَاغهَا ، فهي على التَأكيد لن تَخرُج حَتى تَعرف ذَاك التَغيير المُفاجئ..

كَان الإبريق يَغلي على عَجل ..

كَانت فَتحية تَغلي عل مَهل ..

كان الليلُ يَسير ببطء ، و المَدينة ساكنة بالنَوم و السُبات ، و كَانت آيات من الذَكر الحَكيم تُتلى عَبر المآذن بصوت مُنَخفض جداً ، كُل من في هَذا المَكَان يُؤمن بالله ، و لكن كُل لهُ رَباً خَاصاً به ، رَباً يَركعُ لهُ و يَسجد لهُ و يَهتزَ لهُ و يَصلبهُ و يُشبعهُ و يَقتُل من أجله أو يُقتَل من أَجل جَنته ..

مَدينة كُل من فيهَا عَتيق ، بَأفكَار و مُعتَقدَات و خُرافَات و هَواجس مَا أنزل اللهُ بهَا من سُلطَان ، إنهُ سُلطَان الله الذي يَستوي على عَرشه و بائن على خَلقه يُراقبُ كُل من في هَذا المَكَان ، يَرعَاهُم بحكمته و حنكته و كَرمه و جَبروته ، ظَناً منهُم بأنهُ سَوفَ يَنصُرُهم ..

يَنصُرُ من و هُم جَميعهُم عباده المُكَرمون ..

الذينَ يَرجونهُ و يَتَضرعَون من أَجل إنزال رَحمته بهم ، و هَل حَقاً هُم في كَنَف رَحمته ، أَم إنهَا أُضحُوكة القَدر و لباس التَقوى الذي يَتجلببونَ به و يَتغنون به لَيلاً نَهَاراً !! ..

البَشَر هُنَا جَميعُهم على مستوى من الإيمَان ، و الإيمَانُ هُنَا يَزيد و يَنقُص على حَسَب الكَراهية لا على حَسَب الإيمَان ، و الكَذبُ و الغشُ و الاحتيال يَتَجول في المَدينة كَمَا تَتَجول القطط الشَاردة التي تَقتَاتُ من بَقايا الأعراس و مُخَلفات الوَلائم ..

أَليست هَذه أَرضُ الله !!

و الجَميع يَتَعارك عَليهَا ! ، إنهُ النفاق و لكن بلُغة بَالغة تُسمَى الوَلاء و البَراء ، و لكن ضد من !؟

ضد أنفسهم و الشتَات الذي لَحقَ بهم ..

معراج النَبي مُحمد ، و هَيكَل النبي سُليمَان ، و مَكَان صَلب السيد المَسيح ، و هَلمَّ جَرا ..

و الكُل يَدَعي الوَصل بَليلى و لَيلى لا تَقرُ لهُم بوصَل ..

آه من الوَصل و دُموعهُ ، و انقضَاء العُمر خَلفَ مقود أَنَينه .. إنهُ الوَصل الذي عَلق البَشَر أفكَارهم به ، المُؤمنون هُنَا يَنتَظرون الوعود السَمَاوية التي وعدوا بهَا ، يَنتَظرونَ المَسيح ، و لكن المَسيح مع من ! ، و لصَالح من !؟ ، فَأنتَ لا تَعلم ..

كُل مَا تَعلمهُ بأنَ المؤمنين هنَا يَقتَاتونَ على بَعضهم البَعض ، يُريدُونَ ذَبح بَعضهم البَعض إرضاءً لله و لأَنبيائهم و للصَالحين و القديسين و هَلمَ جَرا من مُخَلفات التَاريخ التي قَدُمت بالذَبح لا بالسلم ، و لَو كَان في تلكَ الأُمَم خَيراً لَبقَيت إلى هَذا الزَمان ، و لكَن هُنَا العَقل مُتَوقف مُنذُ أن نَزلت تلكَ النُصوص من السَمَاء ..

المُسلمون يَكرهونَ اليَهود ، و اليَهود يكَرهونَ الجَميع ، و المَسيحيون يَكرهون بَعضهَم و حَتى يَكرهونَ وُجودهم ..

الجَميع يَكذب هُنَا ، و لكن الكَذب لهُ مَسحوق آخَر ، ميك آب النفاق ، لا مُنَجي لكَ على هَذه البَقيعة إلى النفاق ..

أعَدت فَتحية الشَاي ..

فَتحية لا تَنتَظر المَسيح ، و لا صَلاح الدَين ، و لا المَهدي المُنتَظر ، كَلا ، فَهي لا تَعرفهم و لا يُهَمها أمرهُم أَبداً ..

هي تنتَظر شيئاً وَاحداً فقط ، أَن تَعود الطفلة إلى حُضن أُمهَا و أبيها ، و تنتَهي هَذه المُصيبة بسلام ..

ـ و هَياتَوا الشَاي صَار جَاهز ..

ـ يَسلم هَالدَيات يَختي ، أَخذُمك بفرحك يا دَادَا ..

فَتحية ، و عَشيقهَا الذي قَتلوه على أَسوار بَيت المَقدس قَبل ثَلاثين عَاماً ، فَهي الوَفية المُخلصَة التي لم تَتَزوج ، و لم تُلقَى برأَسهَا على وسَادة رَجُل من بَعده ، قَتلوهُ و زَفوهُ كمَا جَرت العَادة عند المَقادسَة إلى حَتفه الأَخير ..

لَقد اكتَسب لَقب الشَهيد ، و هي اكتَسَبت لَقب حَبيبة الشَهيد ، تَهَافَت الرجَال عَليهَا من كُل حَدب و صَوب ، رَفَضت فَتحية أن يَدخُل قَلبهَا رَجُل آخر ، صَبرت على مُر الفراق و جَمر الوَحدة و نَار الوَله ، ارتَدت ثَوب الإيمَان كَي لا يُطَاردهُا الرجال ، كَان أَبوهَا يُريد أن يُزوجهَا لرجُل تَاجر من الشَام ، و لَكن قَبل أن يُعطيه كَلمة القَبول ، سَحبت سكيناً في وَجه أَبيهَا ، و وَضَعتهُ على نَحرهَا ، و راحت شَرارة الغَضَب تَتَقَاذَفُهَا :

ـ اسمع يَابة ، يَمين عَظيم إذا زَوجتني لهَظَاك الزَلمة لأَذبح حَالي ، و غَير الله مَا بسكَت وَجعكُم ، و أنتَ بتَعرف فَتحية ..

لم يَتَصور الأب شَجَاعة ابنته فَتحية ، و لكن شَعَر بالصَدمة العَارمة من فَعلتهَا :

ـ خَلص يابة ، يلي بدك إياه رَاح يَصير ..

إنهُ الوَفَاء ، عَهد الحُب ، تَقاسيم أنثى عَاهدت رَجُلاً على أن تَلتَقي به في الجَنة ، هُنَاك حَيثُ لا فَصَائل مُقاتلة و لا خَوف و لا فرق طَائفية أو عُنصُرية ، هُنَاكَ حَيثُ النُور ، حَيثُ الله ، و الشُهَداء ..

ـ جبتلك الكُباية يا أبو فراس ، كَاسَة شَاي مع المَيرمية بتسوى أكَبر رَاس يَهودي ، الله يَلعن أبوهُم على أبو يلي جَابهُم على البَلد ..

ـ ها ها ها ، الله عَليك يا فَتحية ، ضَحكتينَا بآخر هالليل ، بَضَلهُم اليَهود أَحسن من العَرب ..

ـ مَا حَده أَحسن من حَده ، كُلهم شُركَاء بذَبحنَا ..

تَعَجب أَبو فراس من مُشَاركَة زَوجته بالحَديث :

ـ من وَين جَايبة هَالسَوالف!!

كَانَ عَبق الشَاي يَتأجَج من الكُؤوس السَاخنة :

ـ من الجَرايد ..

فَتحية قَلبهُا ضَاق :

ـ هَسع نَيت فُكونَا من السياسة ، و بدَي أعرف شُو شُفت بالمنَام

أُريد أَن أعرف مَا يَدور في أحشَاء هَذا الرَجُل ..
مَا يُخفيه يُخيفني ، كَيف انَقلب بين عَشية و ضُحَاهَا ، كَيف لأَبو فراس أن يُغَير رَأيهُ العَنيد ، لا بُدَ أن هُنَاك أمر أَلم به ، و غَير شرعَتهُ نَحو المَجهول ، إنهَا الحَلقة المَجهولة التي لا بُدَ أَن أعَلم إَلى أَين سَوف توصلني ..
ـ خَير اللهم اَجعَلهُ خَير ، هَات لَشوف سُولفنَا ، و سَمعنا ..
ـ بَتعرفي يَا فَتحية شَاياتك زَاكَيات ..
ـ و بَعدين مَع رَبنَا ، يا ابن الحَلال نَطَفتلي كَلبي ..
إنهُ الضَحك على عَجَل كمَا تُريد أن تَعرف المَعلومة على عَجَل :
ـ ها ها ها ..
لُوحظ الوَجعُ على مَلامح فَتحية ، كَانت تَغلي كالبُركَان الثَائر ، تُريد أن تَقلب الطَاولة التي تُوَاجهها على رُؤوسهم و تَخرُج :
ـ طَولي بَالك يا دَادة الزَلمة بَمزح مَعك ..
ـ يا بنت الحَلال عوفني دَيني و ثَيابي ..
لا زَال أبو فراس مُستَمر بالضَحك :

ـ فَتحية ، تَعالي بمزح مَعك يا مَهبولة ..

جَلست فَتحية و اَتَخذَت من مَكَانهَا بُركَاناً يَغلي بصَمت :

ـ هَات لشَوف ، سَمَعنا هَالمُعجزة ..

ـ هَاي يا سَتي و بَعد الصَلاة على سَيدنَا مُحمد و آل سَيدنَا مُحَمد ، كُنت وَاكف بالمنَام على تَلة كبيرة ، تَكولي تَلة مَلعونة وَالدين ، و تَحَتهَا نَار حَمرة بتَغلي ، تَكولي بَحر جَمر بَغلي غَلي ، و رَيح بَتشَيل جبال بتَدفُشني بدَهَا تُدُبني ببحر الجَمر ، و أَنَا أصيح يا سنَاء ، يا سَنَاء ، يابة يا سنَاء .. ونهَا هَالصبية مثل الكَمر ، شَلحت حجَابهَا و رَمت بيدها بدهَا تَسحبني لَعندهَا ، فعلاً ظَلت تَشَد و أشَد لحَتى سَحبتني و فَجأة اخَتفت الريح و فَكع النَور فَوك رَاسنَا ، و مَا شُفت غَير زَلمة مَلتَحي عَمرو بحدود المية سَنة ، تَكول وَجهو مثل الشمس ، شَلحت عَمامتو و سَتر بهَا المَخلوكة يلي شَدتني و اَنكذتني ، اَنا شُفت هَالمَنظر و كَعدت أَبكي بطولي و حسي ، و يا اَهلي يلي مَضَيعني ..

كَان الحَديثُ شَاداً للانتَباه ، و فَتحية لم يَفُتهَا و لا كَلمة ، و بين كُل جُملة و جملة كَان الشَاي يَفرُغ شَيئاً فَشَيئاً ..

ـ أَي يا أَبو فراس ، و شُو صَار كَمَانت !! ..

ـ كَعدت أتَفلت يمَين و شمال ، فَجأة فَكدت البنت ، رُحت و سَألت الشيخ ، يا سيدنَا منهي هَاي المَخلوكة !! ..

يا بني هاي بنتك يلي رَميتهَا للغُرب ، ما سَمعت وَكت كُلت: مَا أكرمهُن إلا كَريم ، و مَا أهانهن إلا لَئيم !!

أنتَ كُلت هَالحكي !! ، عَفواً سيدنَا ممَكُن تَعرفني بجَنَابك!!؟..

أنَا مُحمد بن عَبد الله ..

سَيدنَا النبي !! ..

الله وَكيلكن بس شفتو وَكعت بَين اَديه اَبوسو و اَحب عا رَاسو ، و دَخيلك يا سيدنَا سَامَحني !!

كُوم يا اَبو فراس هالمرة مَاسامح ، بس في مَظلمة رَاح تموت فيهَا هَالبنت و رَاح تَكون مَظلومة ..

و اَنَا بس سَمعت هَالحكي طَار عكلي ..

ـ و هَسع نَيت شُو نَاوي تَعمل !! ..

كَان يَتَحدث أبو فراس و العَرق يتَصَببُ من وَجنتَيه ، و كَأنمَا يَروي أَحَاديث يَوم القَيامة ، سَارعت أم فراس و

أَحضَرت لهُ منديلهُ المَطوي تَحت الأَغطية في غُرفة النَوم ، بَدأ يَمسح العَرق المُتَصَبب :

ـ الله يَطول بعُمرك يا أُم فراس ، من يَوم يَومك أَصَيلة و شَريفة و موجبة ..

ـ مَا عَا كَلبك شَر يا سَندي ، بَظَل خَدامة تَحت إجريك لَمني أَموت ..

تَدخَلت فَتحية ، تُريد أن تَعرف مَا الذي سَوف يُقررهُ :

ـ يا خُوف كَلبي تَضيع البنت بَسبب تَياستكو ، و هَسَع نَيت شُو نَويتُو !! ، بَدك تَرجعهَا للمَخلوكة !! ..

كَان أذان الفَجر يُرفع على حَسب تَوقيت بَيت المَقدس ..

الله أكبر . اللهُ أكبر ..

نَصَت الجَميع احتراماً للأَذان ، رُفعت الأَكُف تَلهثُ بالدُعَاء ، كَأنَ هَذا الوَطن لا يعَرفُ الله إلا عندمَا أحدهُم يُذكرهم بأنَ الله مُستوي على عَرشه بائن على خَلقه ، ليس كَمثله شَيء و هُوَ السَميع الَبصير ..

ـ أُم فراس !! ..

ـ عُونك يا سَندي !! ..

ـ كُومي جيبي إسواره ذَهب و لَيرة ذَهب من الصَندوك ..

تَدَخلت فَتحية كَعادتهَا :

ـ و لَشو بدك اَياهن يا زلمة !! ..

ـ مَشَان اَروح على بَيت الدَاية ، و أَعطيهَا الحَلون ، و آخذ بَنتي ، و أعطيهم أُجرة تَعب بنتي يلي رَمَيتهَا و ظَلمتهَا ..

استَبشَرت فَتحية خَيراً بالخَبر ، كَأنهَا بُشَرت بحَجة إلى بَيت الله الحَرام :

ـ اسمعن جَاي ..

ـ عَونك يا أَبو فراس !! ..

عونك ..

كَلمة ننجد بهَا المَلهوف ..

تَكَاد تَكون ضَماناً لمَن اسَتَجار بمُجير ..

جَميلة نَقية صَادقة لدَرجَة الوَهم ، ذَاكَ الوَهم الكَاذب الذَي يُطلقون عَليه : مَا دُمتُ قُلتُهَا لكَ ، فَأنتَ في ذمتي حَتى تَأخُذ مَا تُريد ..

ـ عونك يا أَبو فراس ..

قَام الرَجُل مُشمراً عن سَاعديه قَاصداً بَيت الخَلاء ، لفتَح صَفحة جَديدة مع الله ، كَأنَنَا بحاجَة إلى صَفحَات مع من لا يُظلم عندهُ أَحد ، و نَظريه على النَافذة التي تُطلُ على المَدينة العَتيقة :

ـ بَعد الوَضوء و الصَلاة جَهزن حَالكَن !! ..

تَعَجبنَ من هَذا الرَجُل الذي نَام بعَقل و اسَيقظ بعَقل آخَر ، كَأنهُ لَيسَ هُو ، كَأنَ هَذا الرَجُل لَيسَ بأَب الطفلة التي سَقطت من رَحم القَدر ، كَأنهُ جَاء من عَالم نَقي يُريد أَن يَغسل مَا تَبقى من دَرن في القَلب ، و أَي قَلب هَذا الذي رَمَى بقلب طفلة لا ذَنبَ لهَا مَا يُقاربُ سبعة أشهُر خَارج حَرم مَنزله ..

قَالت الدَاية ذَاتَ لَيلة و هي تَهزُ للطفلة بسَريرهَا ، و بجَانبهَا زَوجهَا الشَيخ صَالح :

ـ و الله لو البنت أَجت بالحَرام مَا رَمَاهَا هَالرمية !! ..

ـ مَعليش يا بنت الحَلال ، الأرزَاق بيد الله ، و رَبنَا مَا بَكَطع حَده !! ، و هَظَنيتهَا عندنَا بالحَفظ و الصَون ، و وَحده من البنَات ..

ـ يا شَيخ صَالح ، كَثير رَمن بنَاتهن بَرة بَيوتهن ، و مَا بتمرك لَيلة أو الَثانية إلا و أَجا أَبوهَا أَو أُمهَا بدَهم أَياهَا .. !!

ـ مَا حَدهَ بَدو بَنَات مع اَني كُل يَوم بكُول للنَاس اَتقوا الله يا نَاس ..

قَام أَبو فراس مُتَوجهاً للقبلة ، واقفاً بَين يَدَي الله ، رَاجياً رَحَمتهُ و فَضَلهُ و كَرمُه ، طَالباً منهُ أَن يَغفر ذَنبهُ و يَغسل حَوبتهُ ، و يُعيدهُ إلى جَادَة الصَواب ، هَا هُوَ يَرفعُ كَفَيه إلى السَمَاء بَعد أن رَكع و سَجد لله تَعالى ، ظَاناً أنَ الله غَفار الذُنوب ، يَغفر كُلَ شيء إلا أن يُشَرك به شَيئاً ، و حَتى القتَل و الظُلم ..

رُبٌ مُستو على عَرشه بَائن على خَلقه ليس كَمثله شَيء و هُوَ السَميع البَصير ، إنها العَودة إلى جَادة الخَوف من عقاب الله و غَضبه ..

الخَوف الذي أرّقهُم ، و هَز مَضَاجعهُم ، و قَلب مضمَار حَياتهم ، و لو أنهم أَحبوهُ لمَا وَصَلوا إلى مُنَعطَف الخَوف ، الذي يَعبُد الله خَوفاً فَلقد وَصَل إلى مَرحَلة من الأخطاء مَا يَجعلهُ يُراجع حسَاباته ، و الذي يَعُبد الله حُباً ، فَهذا النَقي ابن النقي ابن الطَاهرين ..

يُحبهُم و يُحبونهُ ..

من هُنا تَبدأ العلاقة مع الله .. من الحُب ..

لا يُمكن أن تُعبد الآلهة و النَاس تَخافهُ ، لأَن هَذا الإتَباع هُوَ إتَباع خَوف و خَشية و رُعب ، الآلهة التي تُقَرب المَخلوقات حُباً لعَمري تلكَ الآلهة التي فيهَا ميزات الكَمال ..

يخَافونَ من الزَلازل ، و الفَيَضانَات ، و الأَعَاصير ، و الطُوفان ، و الكُسوف ، و الخُسوف , و غَيرهَا من أُمور الطَبيعة التي أَدرى بمَا يَسرهَا الله لهَا ..

يَخَافون من ذَاتهم ، و مُوَاجَهة ذَاكَ الإنسَان الذي في قُلوبهم ، و من الظُلمة و النُور ، و من البَرد و الحَر ، و من الوَحدة و الاختلاط ..

يَخَافونَ من الوَرق المُسَطر و من الوَرق ذَات المَسَاحَات البَيضَاء ، يَخشونَ السَير على الطُرقات أو السَير رَاكبين ، يَخشونَ اللَيل إذا أقبل ، و النَهَار إذا آفل ، يَنَتظرون المَجهول بالإيمَان ، يُقال إنَ كُلَ شَيء من الله تَعَالى ، بقضَائه و قَدَره و خَيره و شَره و هَلُمَ جَرا ..

كُل شَيء مَعَقود بحكمة و حنكة ..

تُنسب الأمور إلى المُستَحيل ، و إن أتَى المستَحيل يُنكرونهُ ، و إن بَقي المُستَحيل إلى مُدة من الزَمن سَيقولون لَكَ بأنهُ هَذا هُوَ التَطور و التَحضُر ..

نَحنُ نَتَطور و لكن على حَسب حدَة الشَر ، النَووي و الكيمَاوي و غَيرهَا من أُمور مُنَافية للطَبيعة ، وُظفت في غَير مَكَانهَا لتَدمير مَا تَبقى من حَياة ، الجَميع مُهَدد بالانقَراض من الإنسَان و قس على ذَلكَ ..

فَظيع مَا جَرى في هيروشيما ..

اسأل الرمَادَ الذي طَحن الأخضر و اليابس و إنَا لَصادَقون ، في أقل من ثَلاثَين دَقيقة تَقع مَدينة كَاملة تَحتَ أَنقَاض مَطَامع العَالم الثَالث الذي أَرهَق مسَامعنَا بالحُرية و الديمُقراطية و التَحضُر و التمَدن ، و لكن من أجل من يَا تُرى ..

من أَجل البَقاء على منصَة المَطَامع يَحلبونَ الأَبيض و الأسود ، و يَستعبدون الكَون بغَير أية رَحمة و لا شَفقة ..

الشَفقة تَبدأ من أولئكَ الذين يَرفضونَ أن يُبشَروا بَالبنَات ، و لا يَعلم بأنَ الذي أَنَجبتهُ أُنثى ، و أَرضَعتهُ أُنثى ، و جَعلتهُ رَجُلاً أُنثى ، فَهوَ مَدين لتلكَ الأُنَثى مَدى الحَياة ، أية حَياة تَقصد !! ..

حَياة المُدن التي في الحُروب فئران و في السلم شُجعان ، قَاعدة الإقصَاء من اليَمين على الشمَال ، كُلنَا يَمينَيونَ بالتَطرُف ، و حتى من اتخذَ اليَمين إيمَاناً أضَحى يَتَخفى باليَمين خَشية أن يُكشَف أَمرهُ ، الجَميع رُبي على الخَوف : البنت خَوف ، الحَياة خَوف ، المَمَات خَوف ، الله خَوف ، أن تُشَرك به خَوف ، أن تُلحدهُ خَوف ، أن تَقتَلع إيمَانكَ به

خَوف .. خَوف مُقنن حَتى بمُسَميات عدة .. لأَنك جَبان فقط..

اغسل مَا تَبقى من دَرن ..

و اسجُد على من خَلف هَواكَ قَدَرهُ ..

هَا هُوَ يَغفر لكَ مَا تَقَدم من ذَنبكَ و مَا تَأخَر ، أليس هُوَ من يَغفر الذُنوب جَميعاً ، أليس هُوَ الذي قَال :

يا ابن آدم لو بَغلت ذُنُوبكَ عَنَانَ السمَاء ثَم أَتَيتَني و استغفرتني لَغَفرتُ لكَ و لا أُبالي !!

هَا هُوَ يَعفو عنكَ من جَديد ، و لكن هُوَ الذي لا يَنسَى مَا فَعَلتهُ مَع أخواتك ، من المُؤكَد بأنَ ضَميَركَ الذي استَيقظ بَعدَ فَترة من الزمان ، من بعد أن رَحَلت أُختُكَ الكُبرى من هَذه الدَار إَلى الدَار الآخرة ، و هي تَدعو عَليك بأن يجَعل رزقكَ كَسَراب يَعجُ في يَوم عَاصف ، أليسَ أَنتَ الذي حَملتَ نَعشَهَا و أَنزلتَها إلى قَبرهَا ، و كَشَفتَ الأكَفانَ عَن وَجههَا لكي تُوجه وَجهَهَا إلى القبلة ! ..

ألم تَصطَدم عيناكَ بعينهَا !! ..

هل تَذكُر تلكَ اللحظة يا هَذا !! ..

لمَاذا صمت ! ، أَرعبتكَ الذَاكرة أليس كَذلك !!

هَل شَاهدت كَيف ارتَخت أَجفَانهَا ، و وَقَعت عَينكَ بَعينيها ! ، ألم يَرتَجف قَلبكَ ليوم يَجعل الله الولدَان شَيباً ! ، أم لم تَعد تُؤمن بالشَيب الذي سَطا عَلى رَأسكَ بَعد أول لَيلة من لَيالي القَبر التي طَوَتها أُختك الكُبرى ..

فاطمة ، أو فطوم كَما يُحب أَن يُطلقوا عَليهَا باللهجة المَقدَسية ، نَعم هي لم تَمُت بعد ، و لكنهَا لا زَالت مُستَيقظَة ذكراهَا في قَلبكَ بَعد أَن طَردتَهَا من بَيتكَ عندمَا أَتَتكَ باكية تَرجو مَا أعَطاكَ اللهُ من حَقهَا ، ذَاكَ الحَق الذي أخَذتهُ نَصباً و نَهباً ..

ولك يا نَصاب يَا حَرامي ..

اتق الله ..

أفزَعهُ الله اليَوم في لَيلة التي تُعدُ بكَفة ، و ما فَاتهُ من ليَالي بكَفة ، و هَا هي كَفة القَهَار الذي لا تَضيع عندهُ الوَدَائع تَرجح ، و تَهزَ كَيانهُ ، و تُعدهُ إلى عَقله و ما فَقَدُه من رَحمة ..

هَا هي فاطمة تَأتيه في سُجوده ، تُريد حَقهَا من الميراث ، تَسكُنُ اللحظة ، تَطوي رَاحَتهُ جَانباً ، تُشعلُ فَتيل الأَنين بين

دَفتي قَلبه ، تُجَردهُ من السُكون ، و تُعطيه ثقل هَذه المَجرة ، تَقول لهُ :

احمل أوزَاركَ على كَتفي قَلبكَ ، لا مَكَانَ هُنَا كَي تَحمل تلك الجراح ، هُنَا مَكَان لحَمل الألم ، و اَعادة الحَق إلى أهله ، يا مَعتوه يا ابن المَعتوه ، يا ظَالم يا ابن الظَالم ، هَل فَعلت كَمَا فعَل وَالدكَ !!

هَل تَذكر عندما حَرم عَماتكَ من الميراث !!

هَا قَد فَعَلت مَا فَعل أَبوكَ يا نَاكر المَعروف !!

هَل قَانُون الله في قُلوبكم مُجَرد وَهم ! ، أَم أَنهُ مُعَلق بالظُلم و أكل حَق الأَقارب و الأَباعد من البَشَر ، رُبمَا تَنَامُ عيونكُم و لكَن عَينُ الله لا تَنام ..

غَفت عَين وَالدكَ بَعد سَبعينَ عَاماً من التجَارة و أكل حَق المَظَاليم ، ذَاكَ الإقطَاعي بطَربوشه الأحمر الذي كَان يَحرق الأخضَر و اليابس في حَال دُخُوله إلى مَزرعَة الزَيتون التي تَزيدُ مَسَاحتها مَا يُقارب ألفين فدان في الضَفة الغَربية ..

غَرُبت الشَمسُ على مَزرعة وَالدكَ في لَيلة نَامت بَين شَجر الزَيتون سَنَابل القَمح ، و يَبُس عُودهَا ، ألم يَنوي وَالدكَ أَن يَحصدهَا في اليوم التَالي ..

و لكن غَضَب الله حَصَدهَا بعَينه التي لا تَنَام ، و اَلتهمتها النَار في لَيلة كَانَ فيهَا البَدرُ مُلتَهباً ، و المسَاوَات و الأرض و من فيهَا و من عَليهَا كَانت شَاهدة على تلكَ المَحرقة التي أَكلت القمح و الزَيتون ، و ألقت بأَرض سَوداء جَردَاء كَأنمَا يَوم القَيامة و أَتَى ..

هَل ارتوى غَليل البَشَر !!

الفَلاحين و المَسَاكين و العُمَال الذين ظَلمَهُم وَالدكَ و أَكل حَقهم ، و لكَن حَق الله باق ، يجعلهُ إلى يَوم تَشخصُ له الأبصَار ..

إنكَ جُزء من أَبيكَ ، من تلكَ النُطفة القَذرة العَفنة التي نَبتَ لحَمهُا من حَرام ، و هَل كَان يُهمهُ الحَرام و الحَلال !! ..

لا أبداً .. كَانَ يَكرهُ البَنَات ..

باعَ أخواتَكَ الوَاحدة تلوى الأخرى ، بمُهور بَاهظَة ، مُرتَفعَة الدَراهم و الليرات الذَهبية ، و أَول من بَدأ بهَا أخته الكبرى

، و يا لَيت أختها الكبرى على قَيد الحَياة حَتى تَروي لَنَا مَا حَلَ بهَا ' عندما زَوَجها لَرجُل يَكبُرها سناً ، عُمرهُ أكبر من سن وَالدهَا ..

و لكن لا رَأي في حَضرة ذَاكَ الإقطَاعي ..

مَنسوب للظُلم ، منسُوب للحُلم ، مَنسُوب للضَباب ، و لكن الله قَد قَسم جَهنم بالتَسَاوي ، حين قَالت جَهنم :

هَل من مَزيد !!

لا تَقلق سَيدي إنهَا تَكفي لجَميع المَجَرات ، لكَ و لأمثالكَ من الرجَال الظَالمين ، إنهَا أخته الكبرى التي جَهَزَهَا في لَيلة غَابَ فيهَا العَدل و حَل فيهَا الظُلم ، و استَبدَلها بألف ليرة ذَهَبية لفتَح دُكَانه بينَ التُجَار في القُدس القَديمة ، و لكن الرَب لا يَرضَى للظَالم أن يَنبُتَ عُشبهُ على أَبواب فَضله و رَحمته ..

هَا هي فاطمة تَرمُقُكَ بعَينَيهَا ، تُطَالبُكَ و تُطَالبُ أباهَا الحمَار بحَقهَا ، غصبهَا إرثهَا و شَبابهَا و عَاطفتهَا و مَال زَوجهَا الذي شَهدتَ بأنهُ لَيس من حَقهَا بل من حَق إخوان زَوجهَا ..

لتَعودَ فَقيرة تَتَردُ إلى الأسواق تَبيع الخُبَيزة و الزَعتر على الطُرقات ، هي التي أَتَتكَ بَاكية تُريد حَقهَا ، ألم تَكُن تَطردهَا ، و تُعطيهَا قُروش قلائل لتَسد رَمق طفل من أطفالهَا ، قُروش لا تَستَطيع أن تَشتَري بهَا دَقيق ، و لا حَتى خَمير .. يا حمار يا ابن الحمَار .. مَاذا فَعَلت !!

دَائماً الحمَار لهُ مَكَانة بَين الحَيوانَات ..
لأَنهُ لا يَقع في الحُفرة مَرتَين ، و لكنهُ المَظلوم الذي نَقَذف به البَشَر عندمَا يَقعُونَ في وَحل الغَباء ..
السَيدَات و السَادة من فَصيل الحَمير ..
لَقد وَصَلنَا إلى القَرن الحَادي و العشرين ، و نَحنُ نُشَبهُ الأغبياء من بَني البَشَر بالحَمير ، عني و عن كُل عَاقل نَحنُ نُقدم لكَم الاعتذار الشَديد ..
آسف ..
هَذه الكَلمة التي تَعني الكَثير ، و في الوَقت ذَاته لا تَعني شَيء ، كُنتُ أتمنى من هَذه الكَلمة أن تُحيي مَيتاً ، أن تُوقف إعصاراً ، أن تُرمم جُرحاً ، أن تُعيد حَبيباً ، أن تنصر وَطناً ، أن تُخمد حَرباً ، أن تَعفو عن قَاتل أو تُنبت مَقتولاً ..
كُنتُ أَتمنى منهَا أكثر من ذَلك ..
رُحماكَ يا رَباه ، مَا الذي يجَري !! ..
ـ السَلام عَليكم و رَحمة الله ، السَلام عليكُم و رَحمة الله ..
يَتَلفتُ كَأنما يُريد أن يُزيح ذَنباً عنهُ ، يمَيناً و يَسَاراً ، يَرفعُ كَفَيه إلى الهَواء الذي يُقابل شَفتاهُ ، يُريد أن يَحجُبَ الدَعوات

عن أَهل بَيته ، لا يُحب أن يَتَجسس عَليه أَحد ، لأنَ به نَزعة أُبوة من ذَاكَ الرَجُل الإقطَاعي ..

هُوَ الوَاحد الأحد في بَيته الذي لا يُشرك به شيئاً ..

ـ الله يَتكبل يا أبو فراس ..

يَمسحُ كَفَيه بوجهه ، يُتَمتمُ بالتَسَابيح و المُعوذات و آية الكُرسي ، ظَناً منهُ بأنَ الله سَيمنع العَين من دُخول بَيته و متَجره الذي بَنَاهُ بأَموال الحَرام :

ـ منا و منك يا فَتحية ..

يَرتَدي عَباءتهُ ، يَسرن خَلفهُ فَتحية و أم فراس مُتَجهَات إلى بَيت الدَاية ، بل إلى بَيت الشَيخ الذي لم يَكُن يُطيقهُ و لا يُطيق أوامرهُ ، إنهُ بَيت الشَيخ صَالح ، و ما أدراك من هُوَ الشَيخ صَالح ..

الرَجُل الصَالح الذي يُحبهُ فُقراء بَيت المَقدس ، فَكم من كيس دَقيق و بَاقلاء و لحم و حَمَام حَمل على كَتفيه قَاصداً الأمَعاء الخَاوية في كُل استدارة لَيل ..

الرَجُل الصَالح الشَيخ صَالح ، ذَاكَ النُور الذي يُستسقى الغمَامُ بوَجهه ، الذي تَلقى العلم الشَرعي من مُحدث الشَام

مُحمد بَدر الدين الحَسني ، بَاعت أُمهُ ثَلاثين دُنماً من الأراضي في حَيفا كَي يَنهل ابنهَا الصَالح من عُلوم الشَريعة الإسلامية من دمشق ، و زَوجتهُ المرأة الطَيبة التي تُولد النسَاء ، و تَقوم بخدمة الفُقراء ..

هَا هُوَ أبو فراس يخَطو مُتَجهاً إلى بَيت الشَيخ صَالح ، طَالباً السَموح منهُ ، و طَالباً ابنتهُ التي لم يُرد إعادتهَا إلا من بَعد مَنام مُرعب هَز كَاهلهُ ..

كَان البَابُ يُطرق بخَفة ، كَان بيت الشَيخ صَالح مُستَيقظ لصَلاة الفَجر ، كَان صَوت الطفلة يُحيي البَيت بضَحكتهَا الرائعة ، و حَولهَا بَنات الشَيخ صَالح يُدَاعبنهَا و يُلاعَبنهَا :

ـ يُمَّة ..

ـ يا بعد اليُمَّة !! ..

ـ يُمة إن شَاء الله مَا يجي أبو فَراس يَاخُذ هالبنت ، لأَنو كسماً بالله إنهَا تَكول كَمر و مُصَور ، و عَكلي مُو متصور إنهَا تَطلع من هَالبَيت ..

ـ يَمة البنية آخرتهَا تَرجع لَبيت أَبوهَا ..

ـ الله يَعلن أَبوهَا ..

ـ هُس يا بنت ، عَيب الحَكي هَاظ ، و حَرام يا يَمُة ، المُؤمن لَيس بلعان و لا بطعان ، رَبنَا بَغضَب عَلينَا يَا مَيمتي .. اسَتغفري الله يا بنت !! ..

ـ و الله مُو كصدي يا حَبيبتي ، استغفر الله العَظيم ..

كَانَ صَوت البَاب الخَشَبي يُطرق بحنية و بخفة مُتنَاهية ، صَوت قَادم من الضَباب ، جَاء يُطَالب الغياب ، أين أنتَ أَيهُا الغياب ، لَقد طَال فيكَ الغَيب ، كَيف حَالُ نُون النسَوة التي سَقطت من قَلبكَ سَهواً في صَنَاديق أَموالكَ ظُلماً !!

يا ظَالم ، يا آكل أَموال المَظَاليم ، يا ابن الحَرام ..

ـ أنَا رَايح أفتَح الباب يُمة !! ..

ـ لا يَا بنت ، اَنا بَفتح ، بس و الله مني خَابرة أنو في مَرة بدهَا تَولد هسنيت ، الله يُستر ..

رَفَعت صَوتهَا كَي تُعلم من يطرق البَاب بأنهَا قَادمة :

ـ ياالله جَاية جَاية .. !!

كَانَ الشَيخ صَالح قَد جَاء من بَعيد بنُوره من المَسجد الأقصَى ، جَاءَ ذَاكَ النُور الذي يَحملُ في قَلبه وهج الإيمَان و تَعَاليم السَمَاحَة و الإسَلام ..

يا شَيخاً طَوى في قَلب حُب رَبه ..
مَا هَذه الخُطَى التي تُقودنَا إلى مَولانَا ..
فُتحَ الباب عند وصول الشَيخ صَالح من آخر الحَارة ، كَانَ الزُقَاق مُرصَعاً بالحجَارة البازَلتية ، ذَاكَ الزُقَاق الذي يَشهد على الأقدام الطَاهرة يَوم القيامة كَم من خُطى سَارت من هُنَا ..
ـ السَلامُ عَليكُم و رَحمة الله و برَكَاتهُ ، يا حي الله بضيوف الرَحمن ، هَلا هَلا هَلا أبو فراس ..
أَول مَرة يَحمر وَجه أَبو فراس ، أسرع إَليه يَجرُ ذَنبهُ يُريد تَقبيل يَد الشَيخ صَالح ، و لكنهُ كَعَادة الشَيخ صَالح سَحَبهَا بسُرعة ، فَهو الذي لا يَقبل لعُنق أن تَنحني سوى لله تَعَالى :
ـ اسَتغفر الله يابة ، ارفع راسك يا بَيّي ، مَا في دَاعي لَتبوس أَيدي يَا أبو فراس ، كُوم يا يابة كوم ..
ـ و عَليكُم السَلام و رَحمة الله و بَركَاتهُ شَيخنَا ..
ـ شُو يَا جَمَاعة بَدنَا نظل وَاكفين عَند الباب ، فُوتوا يَا بيّي ، يا مَية أهلاً و سَهلاً ، نَورت و اَرحَبت ، فُوتن يابة فُوتن ..

إنهُ مَنزل الشَيخ صَالح ..
جَميع الأَنوار تُطفأ لَيلاً إلا مَنزلهُ عَامرٌ بنور الله ..
يا لنُور الله الذي يَتكأُ في مُصَلاهُ في الزَاوية الجَنوبية للَبيت ، مَكتَبتهُ الصَغيرة التَي تَغُص بفَتوى الشَافعية ، و مصحفه المُعتَق ذَات الأَوراق الصَفراء ، و سُبحَتهُ المئَوية التي وَرثَهَا عن أُمه ذات الحَبات الخَشَبية الزَيتونية ..
بزر الزَيتون المَقدسي ، كَانت كُل شَهر تُجَففُ أحد الحَبات ، و تَقرأُ عَليهَا ختمة كَاملة من القُرآن كَي يَردَ الله لَهَا ابنهَا سَالماً غَانماً مُعَافاً من رحلته إلى الشَام الشَريف ..
شَارفت على الانتهَاء من الحَبة المئة ، حينَ كَانت تُدخلُ الحَبات المَثقوبة في خَيط الفرس الأصيل و هي جَالسَة تَحتَ ظل قُبة الصَخرة ، هُنَا في تلكَ المسَاحة المُفرغة من السَلام تَعيش الأرواح الطَاهرة التي لم تُلوث أَياديهَا من الدمَاء بسلام :
ـ يا أُم صَالح لحكي ، و تَعالي شُوفي هَالشوفة .. !!
كَانت تعدُ الخَيط و تَضَعُ لهُ الشَاهدة الكَبيرة التي تَشي بالبدء و الانتهَاء و هي تَقرأُ سُورة ياسين و تَبكي شَوقاً على فَلذَة

كَبدهَا و ابنهَا البَار الذي يكاد يَتَغيب عن عَينَيهَا ثَلاث سَنوات :

ـ خَير يُمَّة !!

ـ هَاتي البَشَارة يا حَجة !! ..

ـ نَيرة ذَهب بَحطها بَجَيبك ، بس بَشرني !! ..

ـ الشَيخ صَالح وَصَل على الكُدس ، هُاظ هُوَ عن باب البَلد وَاكف بصَلي صَلاة فَوتت الكُدس !! ..

تَدفقت من عَينَيها دُموع اللقاء ، حَيثُ وَضَعت السُبحَة في جَيبهَا الأَيمن ، و قَامت لاهثَة و جَارية قَد نَسيت حذَائهَا البَلاستَيكي تَجرُ صبرهَا الذي عَانت منهُ و الوَحدة التي التَهمتها ..

هَا هي تَركُضَ بكُل مَا أوتي الشَوقُ من قوة ..

إلى أَينَ أنت جَارية يا حَجة ، عُودي لَقد نَسيت حذائك البَلاستَيكي :

ـ يا أُم صَالح ، لا تَنسي البَشَارة !! ..

ـ لم تَلتَفت خَلفهَا ، و لكَنها أشَارت لهُ بأن مَا وَعدتكَ به سَوف تَحصُل عَليه ، هَا هي تَجري بثقلهَا و سُمنتهَا ، هي

التي لم تُقَابل الله جَالسَة مع أن وَجع رُكَبتَيهَا لم يَحملانهَا ، و لكنهُ الحُب بَين الرَب و خَلقه الذي جَعلها تَقفُ بَين يَدَيه جَاثمة صَابرة رَاضية على البُعد و على الشَوق ..

لم تَلتفت إلى المسَافات ، لم تَلتفت إلى الوَجع ، هي التي كَانت تَدعو في كُل بُرهة فَجر :

اللهم اجعَل حُبي لكَ يَفوق حُبَ كُل مَحبوب ..

كانت تَخشى أن يَكونَ حُب اَبنهَا أكبر من حُب رَبهَا ، و لكنهَا تَداركت ذَاكَ المَدد بالدُعَاء حتى انقَطع صَوت العنَاء..

هي التي عَاشَت سنيناً طوال مع الوَحدة و الانفراد بالذَات و الأنس بالله ، هوَ ذاكَ الأنس الذي لا يعودكَ إلا سَعادة و نَقاء..

الله ..

مَا أَجملهُ من لفظ ، و مَا أرحمهُ من إله ..

كَانت تَختلي بذَاتهَا تَحت ظل قُبة الصَخرة أيام عَديدة تُنَاجي حُبهَا أَن أدرك لهَفتهَا ، هَا هُوَ قَد أنجدهَا من انقطاع الوَصل..

هَا هُوَ الذي أَعَادَ وصالَ قَلبها ..

لَقد أدركت بأنهَا خَائفة من أن يَفوق حُبهَا حُبَ أَحد غَيره ، لقد سَمَاهَا وَالدهَا رَابعة تَيمُناً برابعة العَدوية ، و قدَ أَحَيت رَابعة ألف رَابعة ..

يُقَال بأنَ الله يَخَلقُ من الشَبه أَربعين !! ..

أَليس كذلك !؟ ..

نَعم هُنَاكُ قَلوب أيضاً و نُفوس و أرواح تَتَساوى في التَصَرُفات و الأعمال و الخَيرات و حَتى في الشُرور ..

رَابعة التي تَربعت تَحتَ ظل الله تُعَاني فراقهَا من مَحبوبها ، و لكَن الحُب الأَعظم أَعادَ لهَا حُبهَا الأَصغر ..

بعمامة بَيضَاء ، و طَربوش أحمر ، و جُبة رَمَادية يطويهَا قَميص و سروال أَنيق ذَات المَاركة العُثمانية ، كُل العيون تَنظرُ إلى هَيبته كَيف وَاقفاً أَمَامَ البَوابة و أُنيخت الجمال خَلفهُ و جَميع من معهُ من أهل علم و فَضَل كَانوا برفقته يَعرفون صَلاحَهُ و خُلقهُ ، هُو الذي قَال يَوماً :

حَرام علي دُخول بَيت المَقدس مُنتعلاً حَال عَودتي ، لأمشينَ بَهَا حَافياً عَاشقاً يوماً كَاملاً ..

هَا هُوَ وضَع نَعليه الجَلدي تَحت إبطه يُريدُ دُخول المَدينة المُقدَسة ، و النَاسُ ينَظرونَ إلى النور الذي بَين عَينَيه ، إلى التَواضع و الخُلق الذي انتَهجهُ من عَالم الشَام المُحَدث الأَكبر الشَيخ بَدر الدين الحَسني ، هُم الذين عَاشوا على ذكراهُ يسَتقصونَ حَديثهُ و جَمَال طَلته من تُجَار الشَام و الحَجيج ..

حُلمٌ يُراود المَقادسَة في كُل يَوم ، الذي رَأى العَارف بالله بَدر الدين الحَسني كَالذي رَأى أحد أصحاب رَسول الله ..

وَصَلت أُم صَالح إلى قُرة عَينهَا ، تَغَير النُور إلى أن فَاقَ كُل نُور ، و شَهقَ الشَيخ صَالح على رُؤية وَالدته حَافية تَجرُ شَهقتهَا بَينَ دَفتَي صَدرهَا ، و نَفسهَا يَكَادُ يَنَقطع ، كَيفَ لا ، و هي التي أعياهَا الحَنين ، و جَلدهَا الأنين ، و ذَوبهَا حُب رَب العَالمين ..

- يُمَّة ..

و على أَثَرهَا سَقط القَلبُ على رُؤياهَا ..

و خَرَ الشَيخ صَالح لقدوم أُمه يَضمخُ وَجههُ بالبَركة ، و لكَأنهُ وقَع على شُباك النَبي مُعفراً بالهَوى ..

يا هَوى يُمَّة الحَبيبة ، أَنجدي ذَاكَ الفتَى ..

إذاً إنهُ الشَيخ صَالح :

ـ خُشوا يابَّة .. يالله .. يالله .. !!

ـ تَفضَل يا مَولانَا الكُل مَتستر ..

كَانت الطفلة خَلفَ الستار و حَولهَا البناتَ ، يُداعَبنهَا و يُضَاحكنهَا ، و تَطيرُ قَهقهة تَارة ، و تَارة أُخرى تُجنُ فَرحاً ، و لكن هَذه المَرة التي طَار قَلبهَا تلكَ الأمُ القَاسية القَلب ، هَا هُوَ صَوت الطفلة يُنَاديهَا من مَكَان بَعيد ، مَكَان لَيسَ يُشبهُ هَذه الأمكنة المُقدسَة التي يُهَانُ بهَا الإنسَان من أَجل الحفاظ على الأَديان ..

ـ شُو تَشبروا يابَّة !! ..

كَانت الوجوه خَجولة جداً ، حَد البُكَاء ، تَبكي بحُرقة ، و لكنهَا تَجرُ خَلفهَا مَدَامعَ الذَنب الذي جَنتهُ أَهوائهم ..

ـ بدناش نَعذَبك شَيخنَا !!

ها ها ها ، ما أَجملكَ يا مَولانا عندما تَضَحك ، و مَا أَحلى مُحياكَ :

ـ غَلبة شُو يا أبو فراس ، جَيتكُم غَالية ، يا مية أهلاً و سَهلاً..

هي الأَصوات ، وَحدها التي تُشعرنا بأنَنَا لا زَلنا على قَيد الحَياة ، صَوت أولادكَ ، صَوت حَبيبك ، صَوت أُمكَ أو أَبيكَ ، صَوت صَاحب الدُكَان ، و كَذب الحَلاق ، و نفاق التُجَار ، هي وَحدها الكَفيلة التي تُجَردنَا من وَحدتنا و تَجعلنا سُعَداء ، مَاذا سَوف تَكون لولا وَجُودها يا تُرى !! ..

إنهَا الأصوات الشَاغرة التي لا نَشعُر بهَا إلا عند فقدهَا ، لا تَفقدينَا يَا مهَج الحَياة ، فنَحنُ و الحَياة لا نُسَاوي جَنَاحُ بَعوضَة بلاك :

ـ لَحكينَا بكَاسَة شَاي بالميرمَية مع تَمر بالسَمن العَربي يَا حَبيبة كلبي ..

ـ عُونك يا شَيخ !! ..

مَا أَجملهُ من حُب ، ذَاكَ الحُب الذي لا يَعرفُ شَيباً ، و لا يُنكرُ عُمراً ، و لا يُفَتتُ حُلماً ، إنهُ الحُب الذي تَعلمهُ من

حُب نَبيه لزَوجته خَديجة ، و هَا هُوَ يُحي خَديجة من جَديد ، و من أَحياهَا فَكَأنما أَحيى النَاسَ جَميعاً .. يا جَميع نَاسي و وَحَبيباتي ، من لي بعدَ الله سواك ..

وَضَع الشَاي على طَاولة الخَشَب ، كَانت أُم فراس و فَتحية قَد أَكلهُنَ الخَجل و الحَياء ، هَذه أول مَرة يُجَالسن الشَيخ صَالح عن قُرب ، هُوَ الذي كَان يَجلسُ تَحت ظل قُبة الصَخرة يَشرحُ كَتاب إحَياء عُلوم الدَين للإمَام الغَزالي ، هُوَ الذي كَان يُحيطهُ الرجَال و النسَاء و يَخشون الاقتَراب إلى نُوره ، هَا هُم يَقتربونَ إليه أَكثر ، ليعطيهم دَرساً بالحَياء و الخَجل من الله ..

ـ يابة يا اَبو فراس ، لقد استودعتم بنتَكُم لأحد عَبيد الله فَأَنجاهَا و أعادهَا لكم ، فَو الله لو أَن الله سَحبَ روحها لَبكَيتُم عَليهَا عُمراً مَديداً ..

كَانُوا يَهزونَ رؤوسَهم كَالدَجاج ، تَصديقاً لكَلام الشَيخ صَالح:

ـ مَزبوط كَلامَك يا مَولانَا ..

الجَميع يَنقاد إلى أوامر الله وَقت الشُعور بالذَنب ، لَأنَ وَجع الذَنب أَقسى من الذَنب ذَاته :

ـ البنت بنتكُم ، و صَارت بنتي بعون الله ..

ـ بتمون شَيخنَا ..

ـ لا يا ابني يا أَبو فراس ، هَاي بالأخير بنتكُم ، و كُنت متوكع أنك تَجي و تَاخُذهَا ، و البنَات يا بيي بالبَيت نعمة من نَعم رَبنَا ، و أَحن من أَلف زَلمة ، أُمك و أُختك و عزوتك .. أَول مَرة فَتحية و أُختها يَشعُرنَ بعزة النَفس ، كَلامٌ جَميل يَخرجُ من فُو مَولانَا يَرفعُ به المرأة عَالياً ، إنهُ الشُعور بالنصر أَمَام مَدينة أَبوية طَبَقية ذُكورية لا تَعترف بالمَرأة إلا سَريراً للراحَة و خَادمة للمَطَابخ و البيوت ، و الذي يَغُصُ في القَلب بأنَ حَقهَا يُؤكل و على عَينك يَا تَاجر ..

إنهُ أَبو فَراس التَاجر ابن التَاجر ابن الإقطَاعي ، الذي جَمع ثَروتهُ من مَال الحَرام و الظُلم ، و الآن و بَعد أَن دَخل الخَوف إلى قَلبه ، هَا هُوَ يُجَالسُ النَقاء و الطَهَارة و النُور ، و يُواجهُ الحَق ، كَان الشَيخ صَالح يَنتَظرُ قُدومهُ لعدة أَشَياء ، و جَعل هَذه المُصيبة مَصيدة ليقودهُ إلى الحَق ، هُوَ الذي

يَعرفُ كَيف يَرمي سنارة النُور و كَيف يَصطاد الشر كَي يَغسلهُ بمَاء النُور و يُعَيدهُ إلى النُور ، إنهُ الشَيخ صَالح الذي تَاب على يَدَيه مئات من شُبان المَدينة :

ـ يابَّة يا أبو فراس ، ما زَالك أجيت و أجيت ، عَندي كَذا مَوضوع بَدي أفتَحهن مَعك ..

انقَبض قَلب أَبو فراس ، و لكَأنهُ في مَحكمة من مَحَاكم الله ، أتت لتُقَاضيه على مَا فَعل في الأَيام الغَابرة ، لا تُغَبر وَجهكَ بالهُروب من حَتفكَ و مساءلة الله لكَ ، لأَن مَا جَنَيتهُ سَوفَ تَشربهُ أَلماً و وَجعاً :

ـ كول مَولانَا و أنا تَحت أَمرك ..

تَنفس الشَيخ بعُمق ، شَعرَ بأنهُ سَوف يُقَاضيه و يُعيد الحَق إلى أَهله ، ذَاكَ الحَق الذي ابتَلعَهُ هُوَ و أَبوه الإقطَاعي :

ـ بَعد الصَلاة على سَيدنَا مُحمد ، السَالفة و لا طُولة سيرة هُوَ حَك خواتك من الميراث ، و أنت يا أَبو فراس الله فَاتح عَليك و مَعطيك ، و إذا رَبك بدو يكَثر عَليك البَركة لا تَكون مثل وَالدَك يلي نَشَف حَلك نُصَ البلد و كَمل عَا خَواتو !! ..

انكمشَت الرُوح في الصَدر ، كَان يَعلم بأن هَذا المَوضوع سَوف يُفتح ، و لكن لَيس هَذه اللحظة ..

إنهَا الحكاية التي لم تَكتَمل ..
الحكَاية ذات الفَواصل الغَير مَنطقية ، و المَسَافات المُشوهة بالضَباب ، مَاذا تُراكَ فَاعل يَا تُرى !! .
لا شَيء ، سوى النَدم ، و من قَال لكَ بأنَ النَدم سَوفَ يُعيد من رَحلوا ! ، أَو سَوف يرضي قُلوبهَم !!
لن يَرضوا عنكَ حَتى لو أَعدتَ لهَم حَقهَم ..
لأَن الرجَال تُعرف بالمَواقف الأَولى لا بنهَايات الحكَايات ، المَظلوم لا يعَرفُ النقاط التي تُوضَع على آخر السَطر ، أو على آخر الظُلم ..
يعَرفُ شَيئاً وَاحداً فَقط ..
يُريد حَقهُ ، و يُريد مَحرقة لظَالمه كَما حَرق قَلبهُ ..
استَعاد أَبو فراس من جَلسته ، و أَرّق الحَديث سُكونهُ ، و مع أن خيوط الشَمس بَدأت تُشرق ، لا بُدَ لهَذا القَلب أن يُشرق ، إذاً أشرق أَيها القَلب ، مَا الذي يُمسَكك !! ..
هَل هيَ أَطمَاعك و جَشعكَ و أَموالكَ الحَرام !!

و لتذهَب الأموال إلى الجَحيم ، كُن سَليم القَلب و الروح ، فَالحَياة أَقصَر من جَنَاح بَعوضَة ، و أَقصر من زَفير يتلوه شَهيق :

ـ أنَا تَحت أمرك شَيخنا أنتَ فَصَل و أنا بلبس ، و شُو بدَك أنَا جَهاز ..

كَانت النسوة قد سَقطت قُلوبهُن من هَذا الجَبار الذي حَطم جَبروتهُ في لَحظة ضَعف ، هَل شَوقهُ للطفلة جَعلهُ يتنَازَل عن جَميع أمواله الحَرام !؟

أم هَل السَكينة حَلت في قَلبه !! ..

و ما ضَيرُ ذَلكَ ، هُوَ الله يُحيي العظَام و هي رَميم ، ليس عَاجزاً أن يَهدي قَلب رَجُل لم يَعرف الله إلا نفاقاً ..

ـ من اليوم الصبح ، بنَفطر هُون عندي بالبَيت تَرى عَاملة الحَجة مناكَيش زَعتر أَشي بَشَهي ، و بَعدَينت بنَصَلي الضَحى ، و بَجمع خَواتَك و اَولاد أَختك المَرحومة ، و بتَرجعلهن حَكهن يا بيي !..

ـ سَيدنَا مَعليش أكاطعك !!

ها ها ها ، هُوَ مَولانَا الذي يَعرف مَا تَجول به القُلوب ، و مَا تَتَهافت إليه الأرواح :

ـ لا مُو مَعليش ..

نَادَى بأعلى صَوتهُ الجَهوري :

ـ بنتي يا فضية ، تَعالي و جيبي مَعك البنت ، أُمهَا و أَبوهَا بدهن يَشُوفُوهَا ..

تَهلل وَجه الأم التي كَانت تَكَادُ تَبكي من الفَرحة ، في رحَاب الله تَعودُ إليها رَاحلة الأُمومة ، تَحطُ في مَضَارب قَلبهَا ، تُناديهَا :

ماما .. ماما .. ماما ..

يُسمع لصَوت الطفلة ضَحكَات بَريئة ، تَهزُ مَكَامن النَبض ، شَهية النُور تَسري بَين عَينَياهَا بَدراً مُكتملاً ، لا تَملُ من رُؤياهَا أبداً ، لَأنهُ الكمَال الأَبدي الذي لا يَعرفُ الخَيانة ، و هَل الغُزلانُ تَخونُ ظبيانهَا !!

كَذلكَ المَقدَسيات ، كَقبة ذَهَبية مُتوجَات على رَأس الأمة ، و لكن تَباً لأُمَة لا يَعرفُ من شَرف المَرأة إلا سَريرهَا و هَلمُ جَرا من مُشتهى ..

المُشتهى مُغتصَب ، و الأَرضُ بيعت ، و الكَرامة كذبة ، و الحَمية يا لَيتهَا كَانت جَاهلية ، لأنَ حَميتنَا مُنَافقة و مُبتَلة تَحت مَطَر الهَوى ، و الرجولة ظَالمة مُقيتة حَقيرة ذَليلة كَسيرة في مَحَل نَصب لا شَيء ، كَأنَ رُجولتنَا غُبار ، نعم و أَكثر من ذَلك ، رُجولة الأَسرة فقط ، و غَير ذَلك خراف تَسيل إلى مسَالخ الأمَم المُتَقدمة ، كي نُعلف و نُسَمن و نُذبح في مَسَالخهم ..

أكَبر إنجَاز قَدمناهُ لهَذا الكَوكب هُو صنع المنسَف !

طَبعاً ليسَ أي منسَف كَان ، و الذي جَعلك تأكُل منسَفاً مَا نَأكُل منَاسف إلا و هُو مُشبع بالأخبار التي تنقل لنا شَرفنا كَيف تُذبح هُنَا و هُنَاك كَشَاة عَرجَاء شَارفت على الموت :

ـ تَفضل يابَة ..

ابتَسمَ مولانَا كَالشَمس التي تَخرجُ شَيئاً فَشَيئاً ، إنهُ شَمس البَيت التي لا يُظلم في مَملكته أَحد :

ـ الله يرضَى عَليك يابَة ..

بَدأَ الشَيخُ يَقرأُ على رَأسهَا آيات من الذكر الحَكيم ، حَيثُ كَانت العيون تَرمقُهَا أَول مَرة ، و تُنكرُهَا في آن وَاحد ، و

لكن عيون أَبويهَا يَسيل منهمُا لُعَاب الأَبوة و الأُمومة ، انتَهى مَولانَا ، قَبلهَا على رَأسهَا ، قَدمهَا لأُمهَا لأنهَا أحقُ بالبنَات :

ـ عَاشَت أيدك شَيخنا ، و ما يَحرمنا منك و لا من بَركتك ..

ضَمة الرُوح رُوحها لأول مَرة ، اَنكرتهَا الطَفلة ، كَأنهَا تَقول : هَذا الحُضن لَيس لي .. أعَيدوني إلى حُضن شَيخي و أَبتي و أُمي و اَخواتي ..

انَفجرت الطفلة بالبُكاء ، حَيثُ لحَقت الأُم بالابنة بَاكية ، تَشمُهَا و تَضمُهَا ، و تَعانقُ جَمَالهَا ، كَأنهَا خُلقت من الجَنَة ، كَان مَعقود على قَميص الطفلة مصحف من ذَهب ، و سوار في مَعصمهَا الأَيمن مَنقوش عَليه المعوذات ، و زهو الجَمَال قَد أحاط بهَا من كُل حَدب و صَوب :

ـ يُمة يا بعَد عُمري ، ظَلمتك يا يُمة ..

لم تَتَحمل فَتحية تلكَ القسوة من المشَاعر ، انَفجَرت الأخرى بالبُكَاء ، حَتى وصَلت رشَقات من المشَاعر إلى أبو فراس ، هُنَا وَقفت الدَمعة على موارب الحَلق تَدفعُهُ و تَدفع ذَاتهَا

بشَدة ، تُريد الخُروج كأنهَا جني جَعل من جَسد المَريض سَكَناً ..

و سَالت رُغماً عن جَبروته ، إنهَا دَمعة الأُبوة القَاسية الأبوية الطَبقية الذُكورية المُتَخلفة .. تَباً مَا أَقسى هَذا القلب..

حَملَ الأبُ ابنتهُ ..

و ضَمَها بحَرارة الحَنَان ، الحَرارة التي تَمنع سَاكنيهَا من الاقتَراب إلى المحظور ، أَنتَ المحَظور على كَوكب كُل من فَيه يُحلل الحَرام و يُحرم الحَلام ، لَيس طَمعاً بالتَقَرب إلى الله ... كَلا ..

بَل من أَجل حَشو الجَيوب بمَال الحَرام ..

حُلت مُعضلة الميراث ، جُمعن الأخوات في منزل الشَيخ صَالح ، و الجَميعُ رَضي بما قَسَم الله لهُ من تركة ، و تَصَافت القُلوب على الحُب و الإيمَان ، لأَنَ في حَضرة الشَيخ جميعهم سَواسية كَأسنَان المشط ، بل في ميزان الله كَكفة دَقيق ، و حَذاري حَذاري من الرَياح العَاصفة التي تَأتي من غَضَب الله ..

اسَتوى الَرحمنُ على عَرشه ، استواءً يَليقُ به ، استواء رضى بمَا صنع الشَيخ بَين الأَحبة ..

كَأنهُ اليَوم أنزلهَا : اليَوم أَكملتُ لَكُم دَينَكم ، و أَتمتُ عَليكُم نعمتي و رَضيتُ لكُم الإسلامَ ديناً ..

فُضَ المَجلس بالدَعوات ، و ذُبح على بَاب بَيت الشيخ صَالح جَزور لوَجه الله تعَالى ، و ذُبح جَزور آخر عن رَوح الأُخت التي ظُلمت ، و سَالت الدماء مَعلنة رضَاهَا بمَا صَنع ذَابحها ، هي تَنحدر و تَتَدفق من الحَلقوم ، لتُريح مَا جَنتهُ القُلوب من مَاض أَليم ..

كَبُرت سَنَاء .. حَتى استوى بَينَ عَينَياهَا آيات من كَمَال ، تَرتَدي جلبابهَا و حجَابهَا و حَقَيبتهَا و تَنطلق كُل يَوم إلى المَسجد الأَقصَى ، تَسيرُ مع الحُب كَمَا سَار قديسين المَسيح إلى رُوما ، إنهَا لَيست بروما ، إنهَا القُدس و لكن أَكثر النَاس لا يعلمون ..

كَانت تَكرهُ الصهَاينة كُرهاً جماً ، و تُستَقذر الأَرض التي يَمشونَ عليهَا هَؤلاء القتلة ..

هي التي رُبيت في مَنزل الشَيخ صَالح الذي بَلغ من العُمر عتياً ، تَعودهُ كَمَا تَعود الابنة أباهَا ، يُقَربهَا من مَجلسه :

ـ كَيفك يابَّة !! ..

ـ مَشتَاكين يا شَيخنا كَثير ..

ـ تَشَتاكلك مكة يا بيي ، مشَان تُجريني على المسَجد الأقصَى..

ـ خَدام مَولانَا ، بَعيوني ..

هي التي كَانت تَأتيه زَاحفة على شَفير اللهفة ، طَمعاً برؤياهُ و دعواته و كَرامَاته ، هي التي قَرأت ذَاتَ ليلة في صَلاتهَا:

ـ ألا إنَ أولياء الله لا خَوف عَليهم و لاهُم يَحزنون ..

طَار عَقلهَا إلى الشَيخ صَالح ، فَهَطلت من العَين دَمعة خَشية و تَقوى لتسيل على خَدَيهَا كَنهر جَار ..

كَانَ يتَقدم لهَا شُبان المَدينة القَديمة كَقُطعان الجياع ، كَانت تَرفُضهُم بلا أية شَفقة :

ـ يُمة أَنت مَطولة على هَالحَالة ! ، بتَكدملك كُل شَاب أحلا من الثَاني ، لَيش بترُديهم !! ..

كَانت الإجابة ذَاتها :

ـ لَيش في رجَال هُون ، كُلهُم نسوان ، و لو في زَلمة مَا ضَل المَسجد الأَقصَى مُحتل ..

الجَميع يَسكُت في حَضرة العَقل و الحَمية ، لأَنَ القَضية أَكبر ممَا كَانوا يَتصورن ، لا تَتصوروا ما لا تُطيقون فَرُبمَا سَتَقعُ عَليكُم السَمَاء ، و لتَقع عَلينا ..

في كُل فَجر ، تَرتدي جلبَابهَا و حجَابهَا و حذاءهَا الذي لا يَعرفُ صَوتاً و لا طَقطَقةً و لا زُعَاقاً و صَخباً ، و تتوسد تَقوى الله و تَشَدُ برحَالهَا إلى المسجد الأقصى ، كَانت من إحدى المُرابطَات في حَرم ذَاكَ المكَان المنسي من قُلوب من اتَخذوا دينَ الله مسكناً ..

تُجَالسُ الجَميع ، تَضحكُ للحَجيج ، إنهَا العَفيفة التَقية النَقية صَاحبة العَينان الخضراوان الزَيتونيتان ، ذَات الوَجه النَاصع بالطُهر و النَقَاء و العَفاف ..

هي الطَاهرة التي ارتَوت من بَيت العَلامة صَالح المَقدسي النُور المُتَدفق من علمه و كَرمه ..

كَانَ النَاسُ يَظنونَ بأنهَا ابنة للشَيخ صَالح ، و لا تَذهَب بَيتهم إلا قَليلاً ..

ـ يَابة و الله اشتكنالك ! ، طَيب يابة ما إلنا حك عَليك !! ، بطلنا نَشُوفك بالمَرة ..

يَحمرُ وَجهَها كَكَرز جَبلي ، و يَنهطلُ الحَياء كزوبعة نَقاء ، و تَخفضُ رَأسهَا من باب :

و اخفض لَهُما جناح الذُل من الرَحمة :

ـ حَكك عَليَّ يَابة ، بَعرف أني مكصرة ، بس الدراسة و المسَجد ، و بخدُم سَيدنا الشَيخ ، و الله يا يابة مني ملحكة !!

عندما سَمع اسم الشَيخ صَالح ، كَان أبو فراس يَذوبُ خجَلاً ، فَهو الذي تَابَ على يَديه ذَاتَ يَوم ، و أمسكَ بيديه إلى الله ، و فَرشَ لهُ طَريقَ الإيمَان نُوراً ، نُور على نَور يهدي اللهُ لنوره من يشَاء من عباده :

ـ و شلون صَحتو لَسيدنَا يا يابة ؟ ..

تَتَكسر مَلامح سَنَاء ، كَالتي تُريد أن تُذهب الحُزن عن قَلبهَا ، و لكن يأبى الحُزن إلا أن يَدخُل جُنَاحَهَا :

ـ و الله يا يَابة مو كَويسة ، الرَجل كَبير كَثير ، و صَحتو عا كَدو ..

يَبتَهج الشَيخ صَالح بدخُول سَنَاء ، يُشَرق وَجههُ برؤياهَا ، كَأنما أَحد بنات النبي و دَخلت إليه ، فَكَان يَقرأ الشَيخ صَالح حَال دُخُول سَنَاء إليه :

ـ إن الله يُريد أن يُذهب عَنكُم الرجس أَهل البيت و يُطهركُم تَطهيراً ..

إنها لَيلة الخَامس و العشرين من رَمضَان ..

ـ يلا مَولانَا ، أنَا جَاهزة ..

ـ الله يَرضَى عَليك يا بنتي يا سَناء ..

على كُرسي مُتَحرك ، يجلسُ النُور من غَير قوى ، إنهُ قوى الإيمَان فَقط ، الحَياة جَردتهُ من قواهُ ، و الله أعَطاهُ في وَجهه نُوراً و انشراحاً ..

تَجرهُ المسكينة بَينَ الأَزقة إلى الحَرم القُدسي قبل أن يُرفع صَوت الأَذان بنصَف سَاعة ، رَجُل بَلغ من الحُسن ثَمانينَ عَاماً و هُوَ يَأمرُ بالمَعروف و يَنهى عن المُنكر و يُقيم الصَلاة و يَصوم المَكتوبات و يُجَاهد عن مَسرى رسَول الله ، و لم يُفنيه سن ، و لم يُجلسهُ كُرسي عن الصَدح بقول الحَق ، هُوَ الذي وقف يَوماً على منبر الأقصى خَاطباً :

ـ إنَ مَسرى رسَول الله أَمانة في أَعناقكم ، فلا تُفيد صَلاة و لا صَيام من سكَت عن حَقه في الدفاع من الحَرم القُدسي ، و من حَج بَيت الله و زَار نَبيهُ و نسي مَسرى رَسول الله فَليُراجع إيمَانهُ ..

اتَبعهُ الصَادقون ، هَذا دَيدَن الدُعَاة الصَادقين الذي يَجرون خَلفَ الحَق و يَدعونَ أهَل الهَوى و الضَلال ، كَانت سَنَاء تَستمع إلى صَوت الشَيخ صَالح من خَلف حجَاب ، يَصل صَوتهُ عَبر مُكَبرات الصَوت ، يَهزُ الأرضَ و يُجَازي المُخَلصين و يُزلزل صُدورَ المُنَافقين ..

رمَضَان ضَيفٌ عَزيز شَارفَ على الرَحيل ، و كَأنهُ رَمَضان الحُب و الرَاحة ، هنُاك تَحت ظل قُبة الصَخرة خُتمَ كتَاب الله في هَذا الشَهر مَا يُقارب عشَر مَرات ، تُتلى لتَصَعد إلى السَمَاء ، و هَا هيَ تَجرُ رَحى المَوت على كُرسي ذُو عَجلين :

ـ أعطيني هَوياتكُم !! ..

تَتَدخل مَلاك الله التي ما ضَحكت في وَجه مُغتَصب :

ـ هَاظ الشَيخ صَالح ، ما بَدوش هَوية ، يلا رَوح انكَلع ..

جُندي إسرائيلي كَان يَترقَبهُمَا ، إنهُ الشَيخ و الابنة :

ـ بتوكلي خَرا ، فهمتي !! ..

احمرَ وَجههَا غَضَباً ، و ما كَانَ منها إلا و أن تَفلت على وَجهه :

ـ أنتَ و أمثَالك بُوكلوا سَتمية خَرا بنُص وَجهك يا نَجس ..

سَقط أرضاً مُوهماً الحَرس الصَهَاينة بأنهُ اعتدى عَليه ، دَوى صَوت الرَصَاص من كُل حَدب و صَوب ، أَصَاب فَتحية العُنوسة ، اتَخذت بَيت أَبو فراس مَسكناً ، الجَميع يُحبهَا ، كانت تقلب إناء المَقلوبة رَأساً على عَقل ، يَتَصاعَد البُخَار من الطَنجرة :

ـ يَا يُمَّة مَا أَزكاهَا ، بدي اَشيل لسنَاء صَحن عَا جَنب ، يلي بمُد إيدو رَاح أكسَرلو إياهَا ..

وصَل صَوت الرَصَاص إلى سَكينة القُلوب ، فَزع من في البَيت ، وقع طَبق المَقلوبة من يَد فَتحية :

ـ بَسم الله الرحَمن الرَحيم ، الله يَجيب العواكب سَليمة ، الله يَجيب العَواكب سَليمة ، الله يُستر يا رَب ..

دَخلت أُم فراس فَزعة :

ـ يا مَيمتي يا سَنَاء ، يا بنت الحَلال كَلبي وَكع من صَدري ، تَكول رَصَاصة و انحدرت إي هَان ..

أمَامَ بَوابة المسَجد الأقصَى يَسقُطُ الإمامُ شَهيداً ، و دمَاؤه تَسيل و تَسيل و تَسيل ..

شَخصَ البَصر و ارتَقت الروح بسلام و أَمان ، و لكن أينَ سنَاء ، هنُاك خَلفَ الموت تَتَنفسُ بُبُطء ، تَرفعُ إصبعهَا السَبابة :

أشهدُ أن لا إله إلا الله ، و أن مُحمداً رَسول الله ..

وقفَ الموتُ مُبتسماً ، يَرمقُ بثنَايا الوَداع أرواح سَاخنة حَلقت إلى السَماء ، لم تَكن أرواح مُقَيدة ، كَانت أرواح صَائمة قَائمة مُجَاهدة مُرابطة تُدَافعُ عن مسرى رَسول الله..

هُنَاك مع الأنَبياء الإفطار أَجمل و أَشهى ، هُنَاك فَوق سَبع سماوات يَنتظرُهم رَب الأرض و السماوات ، هُنَاك سُمع صَوتٌ من نُور يَقول :

يا أيتُهَا النَفس المُطمئنة ارجَعي إلى رَبك رَاضية مَرضية ..

هَل هي رَاضية !! ..

نَعم رَاضية ، شَيخ و عروس على أَكتاف أبنَاء أبو فراس تُزفُ إلى حَتفهَا الأَخير ، بل إلى جَنتهَا الأَخيرة ، كُتَبَ بخَط عَريض :

المُجَاهدة و المُرابطَة العَروس :

سَنَاء المَقدسَي ..

عَجت الزَغَاريد ، كَأنهُ عروس ، تَسيرُ جَنَازة الشَيخ صَالح مع الشَابة سَناء المَقدسَي في السَادس و العشرين من رمَضَان بعد صَلاة الجُمعة من رمَضان ..

نَسيتُ أن أَهمسَ في أُذنَيك ذَاتَ تعَارُف ، عندما قُلت لي :

ـ الحَلال لَذيذ ، إن أَردتني ، هُنَاك باب أَبي ، اطرق الباب ، تَسمع الجَواب ..

نَسيت أَن أَقول لك :

سَناء المَقدسي ، اشَفعي لي عند الله ، لم أَقل لك ذات بَسمة أنَني أُحَبك !! ..

شُكراً ..

أتمَمتُ رواية :

جراحٌ لن تَنتهَي

في بَلَد الحُرية و الديمُقرَاطية : النَمسا ، في عَاصمَة البيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مكتبة مَاك في الحي الأول ..

السَاعة : 00 : 01 ، ظُهراً بتوقيت الشَهَيدة سَنَاء المَقدسَي..

من تَاريخ : 10 / ابريل/ 2018.